البُحَيرةُ الراكِدةُ

مجموعة قصصية

محمد إبراهيم الفلاح

● **الكتاب : البُحَيرةُ الراكِدةُ**

● المؤلف **: محمد إبراهيم الفلاح**

● التصنيف **: مجموعة قصصية**

● يصدر عن

شعلة الإبداع للطباعة والنشر

● رقم الإيداع : **٢٢٧٣٢ / ٢٠١٩**

● الإخراج الفني : **أسماء أشرف عزمي**

● بالتعاون مع

اللوتس للنشر والتوزيع

● **ت / ٠١١٢٠١٣٠١٧٩ – ٠١٠٢١١٥٦٧٥٧**

حقوق الطبع محفوظة

الإهداء

لما كان الإهداء لا يخلو من عرفانٍ بالجميل و بحُسن صنيع أشياء و أشخاص كانوا هم السَند و الظهير في كل ما نخوض من مَصاعب و أهوال في سبيل أن يخرج ما بداخلنا و ما اطمأن له الذهن بأنه لا جرم إبداعُ قريحةٍ عانت أشد المُعاناة في سبيل العبور به من عالم الذَرِ إلى حيث ذاكرة خلائق لا تفنى إلا حينما يُنفخُ في الصُور ، لذا كان اطمئناني روحاً و نفسًا و فؤادًا إلى أن أخُطُ تلك أبيات أربع تُبجل دور أربعةٍ في حياتي هُن لا ريب السرُوراء أن أكون ذاك الذي أنتم ، أعزاءي القراء ، على وشكِ أن تقرؤوا ما خَطَ من سطور في سبيل ادخال الشعور بالسعادة كذا بالعبرةِ و العظةِ إلى نفوسكم :

إن في تقوى العَبدِ خَيرهُ
بها يَعلو و يَزدادُ عِلمهُ
فيا أيُّها المُبدعُ ! ثِق أنكَ
بلحظاتِ اخفاقكَ تَرتقي في حُكمكَ
و أما القَدرُ فجميلٌ كُلهُ
فارتضيه كما أوصى مُحمَدُ و آلهُ
و أما الزوجُ فيعوزني البيانُ
فالفضلُ جَمٌ لا يُوفيه الكلامُ

الماء المتجمد في الاباريق

في يومي الاول لا انفك اضيق ، ببرد قارس و عالم صفيق . كل شيء يصيبني بالحريق ،جمود و صرامة للدم تريق . كان الصقيع جد صفيق ، و الماءُ متجمداً في الاباريق . أردت المغادرة و عبور المضيق ، راجياً العودة بصحبة رفيق . غير انه فاجئني ببريق ، يتلألأ في وجهه الرقيق . قال :

_ ما بالك لا تطيق ؟ ، ذاك امر جد لا يليق .

_ ما بالك انت ايها الرفيق ؟ ألا تصحو لما حولك و تفيق ؟

_ إنه للعلم التمس الطريق ، و لا يضل مسعاي و لا لإياي شيء يعيق . فانتابتني دهشة و أنا في ضيق ، فأردف قائلاً و مُخمداً الحريق :

_ غذاء العقل و ازاحة العتيق ، يهون لأجلهما كل ضيق . فما بأمرؤ جد خليق ، ملء المعدة و سكب المريق . و بلاده بصدرها لا يزال يَحيك ، طيفُ جهالةٍ حرجٌ صفيق . فبُلوغ العلم حبلنا الوثيق ، به نرتقي و يكسونا بريق .

_ ما اغرب دأبك و نظرك العميق ! أنى يروق لك ذاك طريق ؟! أتريد اهدار السنين و الشهيق، ع أُناسٍ يعاملوننا كالرقيق ؟!

_ أنا لا أُبالي البتة و لا أضيق ، في سبيل الرفعة و التحليق . فأنا لا يبرحُ تفكيري العميق ، مُنية أن أكون بالعلم خليق .

فالتيسير على أمثالنا جد يُعيق ، مسيرة اصلاح و ابتداع للطريق .
فما إلى الهدوء يركن غريق ،يزفر أخر زفراته بعد الشهيق .
_ما تنشدَ يطول بباغيه الطريق،ويقضي نحبه والعذابات به تُحيق.
فما كان لترسٍ بآلةٍ أن يُفيق ، قوماً من سُباتهم العميق .
و ذاك دأب الدنيا العتيق ، سادة حُكامٌ و عبيدٌ رقيق .
_ هكذا أنت دوما يا مليك، تأبى النظر لأبعد من قدميك .
إليك درسٌ في التاريخ دقيق ، الكلُّ للعزة و المذلة شقيق .
فما يدوم حال شعب حتى يفيق ، في غياهب جُبٍ مُظلمٍ عميق .
إنما غرس الفسيلة دورنا العتيق،رأينا أم لم نرى مِزيةً تليق .
_ يا لك من مغامر يُريق ، في سبيل مأربه دمه الدفيق ! تعنيفي
لإياك لا يُجدي و لا يُفيق ، فأفقك واسعٌ و أبداً لا يضيق .
لا ينل من كبرياءك المنجنيق، ثابتُ الجَنان حين الخطر يُحيق .
_ ابتهلُ إليك جد راجيك ، احمل مِشعل العلم و لا تضيق !
فأياً ما كان من عُسرٍ يحيق ، فاقتناء العلم بنور الحقيقة لصيق .
و لا تنتظرَ مدحاً و لا ثناء يليق ، فلا كرامة لنبي بوطنه
الغليق . كلما زاده علماً و بريق ، زاده صَّلفاً و سباً لا يليق .
_أذاك ما دعاك ولم يزل يحتويك،إلى اجتياز الصعاب وما قد
يُشقيك؟ فقد قدحك المُعلم بما يُبكيك ، و نعتكَ بأوصافٍ جد لا
تليق . فتساءلت من ذا الذي يطيق،ولا يدفع عن نفسه رميه بما
لا يليق . و زاد من اندهاشي و تأجج الحريق ، أنك عند التقريع

لدمعةٍ لم تريق . قسمات وجهك المُستغرق الدقيق ، لم يرثين لحظة و لم تَفيق .

_ إليك قول به أفتيك ، علَّه يُزيل غضبك و يُرضيك . لا تتدع عذراً و لو كان حقيق ، لخطأ اقترفته و آفة تعتريك . فعدم نظافة المرء بإيمانه لا يَليق ، و لو كان الماءُ مُتجمداً في الاباريق . فغِلظةُ معلمي جاءت لأَفيق ، على أمرٍ بالمرءِ خليق . فمن يلتمس للعلم طريق ، لا يصح أن ينشده بمظهر لا يليق . ناهيك عن أن المعلم يجتبيك ، بنور علمه الذي ما يلبث أن يعتريك . فبصيصه أملٌ بالوجدان يعتريك ، عَلَّكَ تُصيب منه قدراً يُرقيك. في سبيل يَهون كل ضيق،و لو كان الجَلدُ و كي الحريق .

_ افحمتني بقولك البليغ يا رفيق ، فأنى لتلك حكمة للجهول ألا تفيق . سوف أبى و أحتمل في سبيل تحقيق ، نهضة بلادي و علوها الوثيق . فالقطع باحتمال أمرٍ يشقيك ، سبيلك إلى الرفعة و التحليق . فلا تستبق يوماً إلى ظنٍ صفيق ، بأنك دوماً للصائب في تحقيق . فتلك شرارةُ كِبرٍ يُشقيك ، إن اذعنت لإياه الجهلُ يعتريك .فالكلُ مُخطئ و دائمُ الترتيق ، لكل فتقٍ بالوجد عميق . و سبيل ذاك الشدةُ و التحريق ، فالأخذُ باللين هنا لا يليق . فكيُ الجُرح للدم قد يُريق ، غير أنه لتقَّيُحهِ و فساده يعيق . كم كنت بحاجة إلى صديق ، يَصدُقني النُصح مثلك يا رفيق . فكلامك يُضيء لي الطريق ، و يجعلني أطيق ما لم أكن لأطيق .

فارتسمت ابتسامة على وجه رفيق ، قائلاً : هكذا ينبغي بالرفيق . مُفعمٌ بالطيبة و للوجد شقيق ، يُبصرُّكَ بعيوبك و بالحق يفتيك . حين تضل يهرعُ و يأتيك ، و لجادةِ الحق لإياك يكون بالمُسيق . مدحه بفعل فرية لا يُغريك ، رصين واثق متعقل رفيق . ثم را ح يُكمل لمليك ، حُجاجاً عُراه كَعُرى نَسيجٍ سميك :

_ ذاك مدحُ يطريني و يطريك ،فكلاً منا للأخر شريك . فأنا العقل وأنت يا مليك ، مهجة الفؤاد و مضغة تُسيق . فلا للسأم أن يوماً يُعيق ، الساعي إلى العلم و عقله الطليق . ما دام الفؤاد به قط لا يَحيك ، سوى طيف إيمان و فرح وشيك . و لا للغضب أن بالعقل مرة يَحيق ، إلا و يخيب مسعاه و يَضِلُّ الطريق . فدع الطيبة تُخصب أراضيك ، و تُنبت من العدو الصديق . فالحُبُ إن كنتَ له مَليك ، هانت كلُّ عثرةٍ بالطريق . فإن صرت للعلم عشيق ، بوركت و استحال بينكما التفريق ...

_ إن الحوار مثمرٌ يُفيق ، المغشي عليه في جُبٍ عميق . و إنَّ الصمتَ مني و الانصات لفريقٌ ،بهما أرقى لأتوسطُ الطريق . فاختيار أيسر الأمرين يقيك ، مغبة السأم و عنت يُشقيك . طبت و طاب مسعاك الرقيق، يا عقلي الحاذق،أقصد رفيق !

_ و سلمتَ لي يا فؤادي يا مليك ، لولاكَ لكنتُ الآن غريق . هَلُّمَ إلى نداء العلم العميق ، ذاك الذي يشق ظلامنا السميك . و خلين الآن أواصل الترتيق ، لكل ما تَصدَّعَ بالرأس و لا يَليق . يا صاحب

الجسـد ، أعـدُك ألا يومـاً أُخليـكَ ! ففـؤادُك الحـب فيـه طليـق . و شرطُ صَّولِي وبالفضاء التحليق،أن لبذرةِ الحب الجدب لا تُذيقَ.
_ أصبت الهدفَ من أقصر طريق ، و جعلتني بفلك العلم أبغي التحليق . سلاحي الحب و طاعة الرقيق ، كلاهُما لُحمةٌ تأبى التمزيق . و ذاك شأنُ كل الرَّقيق ، في مِحراب العلم العتيق . يصيرون عبيداً مُستحقين للتحريق ،إن أتوا بفعلٍ لا يليق . الآن حصحص الحق العريق ، و صرت بالروح و الفؤاد مليك . مليك قسم يُريني النميق ،من صنوف شقاءٍ و للعلم غير مضيق . ففي سبيل العلم و عبور الطريق ،يهون الألم و العنت والضيق . فها أنا ذا ازدان في الساحة كالرقيق ، ليشريني سيدٌ لنيفٍ بالعلم مليك . فأكن له عبداً فيُذيق ، جسدي من نبع الحقيقة الدفيق . فبأكسيره ازداد نضارةً و نهماً وتشويق ، فيقتات و ينمو عقلي .. أقصد رفيق .... إنك أنت الأحق مني بالتصفيق ، و بمدح فؤادي المُتوج بك مليك . و آية ملكه و سُلطانه العريق ،أنه بمحراب العلم يكن كالرقيق .

انفراجه

كل ما حولي يكسوه النحيب ، يألم لفقدها و يستشعر اللهيب . شاطرتني الأرضُ كذا الكواكبُ ، حَرَّالأدمع اللائي أسكبُ . أوشك عقلي على الذبول ، و الوجدُ و المتعاقبُ من الفصول . الكلُّ كان لإياها يُبطنُ ، الحبَ و الإكبار.. و الوجدانُ مُذعنُ . و حين فرغ القبارُّ، استولى على أفئدة الجميع انفطارُ . فالخطو للقدمِ كان لا يأتي ، وكأنهم رَّضيعٌ في المهدِ . يدٌ ملائكية امتدت ، و صرنا بالوجد كالمُقعد . ظلَّلنا لشاهدة القبر بالعينِ ، نبصر ما لأبداننا كان يُفني . يَدٌ غاشمة كانت تُهشمُ ، كلَّ دنيوي و مادي و لا ترحمُ . و كأنها ساعة القيامةِ ، و المَلَكُ لا يُمهلُ للغدِ . شَعُرنا بأن لا مناص و لا عودَ ، لدنيا هندُ بها مُفتقده . جَّنى الليلُّ و غشانا غُبنُ ، فمُوحش الليل و وجلٌ الجَفنُ . أوصالنا و عروقنا مُتجمدة ، لا ندري أنى الفدا . استبدت بنا الساعاتُ الموحشة ، و نارٌ بأحشائنا جد مُؤجَجه .

و بينما هي عاجزةٌ الأبدان ، عن الإتيان بفعلٍ و البيان . كان فعلُ المَلَكِ موصولا ، و أوقف عجلة الزمن فصولاً . جانب أثره صوت الآذان ، و رغبةَ أحدنا في الغُفران . كُنا أصناماً بهيئة انسان ، اللحم و الشعر إياها يكسيان . فقلت في نفسي : يا عدنان ، لما لم تُجِب داعيكَ الولهان ؟!

تُـيمَ بـك و رجـاك لتميـل ، على لسـان ابنـة اسـماعيل . و بأن تخلدَ للحب و تركنَ ، و لوسواسٍ بالضغينةِ قط لا تُذعنَ . فأبيت لنداء الفطرة أن تَميل ، و جَنحتَ للشر و لإياها لم ترُّد الجميل . فأنى الآن إلى رجوعكَ السبيلُ ، و قلبكَ صَّريعٌ و احسانك قليل . صَّرعته بالمعاصي و الفعل الرزيل ، فأُقتِصَ منك بيد الجليل . بأن أخذَ ترياقك إلى الضريح ، و خلاك أسيراً دونما تسريح . كانت للطهارة عنواناً ، و ها هي و الطهارة يُقبران . بفنائها فنيت الحيوان ، و ذهب الضوء و ناحَ الانسان . الكُلُّ مَحمومٌ ينتظر مُتطلعا ، أن يُهدى اليقين و يَسمعه . عالم الموتى غِطاؤه لا يُنزعُ ، إلا بيد حنانٍ يَمنحُ و يَمنعُ .

بريق عجيب منه يَصعدُ ، و جَوفُ القبرِ على الظلمةِ قابضُ . تُرى ، ما الذي ساقه القدرُ ؟! رؤياها كالطيف أم رؤيانا نَحتضرُّ ؟! كانت الأضواءُ تَهُب عَاصفةً ، و تَطوفُ بالقبرِ طوافاً لم أعرفه . ظنناه في البداية سحراً و مساً ، لكنه تَمثَلَّ لنا واقعاً و حدثاً . سقط شعاع الضوء في عيني ، فانكشف غِطائي و تبدّدَ ظّني ...

سرت حركةٌ في القبور ، كأنه زفاف بليلةٍ طَهور . الكلُّ صَّوب قَبرها سائرون ، يَحملون الدُفَ و إيانا لا يُبصرون . فتباً لنا من حفنةٍ ، لم تنم عن المعصية لحظةً . فنحن العُصاةُ والوحوش الكواسرُ ،لأمثالنا أفئدةُ الطيرِ لا تنظرُ . هاك طيفٌ ناصعُ البياض ، كأنه نهرُ لبنٍ فياض . حوله الافواه و الحُلوقُ

تُزغردُ ، فقد حاز ما كان يَنشدُ . جرت دماؤنا باردة ، فالذهول كان مبدداً . فحاولت أن أُنادي و أنطقَ ، فوجدتُني مُصفداً و لستُ ناطقا . و عند نقطةٍ بالأثير مُشرقة ، تَلَّقى الطيفَ بحفاوةٍ الملائكةُ . كانت العين تُتابع في حُبور ، الاسراء بطيف في غير سُفور . ترانيمُ السماءِ تَعلو شاديةً ، و على أجنحة الملائكة محمولةٌ هي . لكنها و قبل أن تشق الحجاب ، نظرت لإيانا في ارتياح و عتاب . و بادلناها النظرة بالنظرة في حِساب ، و القلبُ مُلتاعٌ و نَبضه خَبّاب . ما بين التيقظِ و النومِ ، وقفنا و الآثام لأفئدتنا تُدمي . يسيلُ منها الدمُ أنهارا ، دمٌ أسودٌ غزيرُ إغماره . كان خروجه خروجاً مُؤسرا ، وانسلت مكانه أطيافُ ضوء متواترة . نعم ، فقد اشارت " هند " ليعيدونها ، و كان هبوطها كمسرى نبينا و نبيها . ففاض القلب بعبير وَرع مَن ، آثرت الرجوع لتسكن أفئدة لا تُثَنْ . لولا رجوعها الميمون لكانت كالوثن ، تَحيا و لا تَعلَّمن ما للخالقِ مِن مِننِ . صِرنا و هي كالدم و الأنسجة ، لا يفصلنا سوى دنيانا المُتبرجة . صار فِعلُ الآثام شهوةً زائفة، و قِبلة أعمالِنا ربُ الكعبة المشرفة .

و هاكم الانفراجة تأتي و تَحدثُ، "هند" بأفئدتنا تحيى وتُحدثُ . تُحدثُ بآيات القرآن و الأحاديثِ ،فتَعقل فعلَ الملعون إبليسِ . و هاكم أوصالنا يعود إليها الحِراكُ،فقد صَّار عَصياً عليها الإشراكُ . أبت إلى البرزخ أن تمضيَّ ،مع الملائكةِ الكِرام الأتقيا .

قالت : دعوني إليهم لأُصليه ، ذاك خناس و الوجدان أُنقيه .
و يوم القيامة حين أُلاقيه، ربَّ العبادِ فيهم أُناجيه .

خرجنا و في فؤاد إيانا هي ،لم تغادر إياه لحظة و لم تُخليه .
كنا منها في أيما نشوةٍ وانفعالِ ، و طابَ ما كان بيننا من اتصالٍ
و وِصالِ . ما عاد ما كان من زيغٍ و عُصبةٍ ، كانا بداخلنا
ينشئان للصراع حلبةً . فنظلُّ على ضلالنا و عنادنا السفيه ،
و لا نأبه لسقوطنا صرعى في جُب التيه . فقد كان لإياهما
صوتٌ عذبٌ و رَخيم ، يتوارى ازاؤه نداءُ الفطرةِ الوجيه . فجُل
ما صِرنا نريد و نبتغي ، لُقياها بفؤادٍ بالحسنات غير زائغ . فؤادٌ
بالطاعةَ صار فقيهاً ، و يعقر الزيغ و ما معه من عصبةٍ كريهةٍ .
إنها عُصبةُ الآثام اللائي ، كانت تحلو لأفئدةٍ صماءِ . ذهب عنها
حزنها الغيرُ محدودِ ، و صار عصفاً و مُصفداً بالقيود . " فهند "
ارتاء لها القعود ، في قلب كل منا ليجود . و ما نرضى لإياها
سوى بالمكوث،كريمة مكرمة.. يَمينٌ غيرُ غموسِ . و هاك دنيانا
مرة أخرى ، يندى ما بها بقدومها و المسرى . فوجودها و لو
بالروحِ و الفكرة ، يُزكي الأجواء و يزيدها عطراً .

البحيرة الراكدة

كانت الحياة بالنسبة لي أشبه بالبحيرة الراكدة ، و كان ما أشبه اليوم بالبارحة ، وكنت كلما رفعت رأسي و طالعتُ ما كان حولي ، كان يأتيني السؤال مباغتاً :

- ماذا عساي أ ن أفعل لتجري الإمور في غير أعنتها ؟

و كانت الإجابة التي أعطاها عقلي :

- ألقي حجراً كبيراً في وسط مياه تلك بحيرة راكدة !!

كانت الفكرة سريعة جداً ، ملهمة للغاية لدرجة انني لم أستطع أن أغلق أذني دونها .. لم أكن أملك رفاهية فعل ذلك .. فصوت ما بداخلي قال بأن في إمكاني فعل ذلك و كذا أن أسير بالأمور في تلك البلدة القابعة في الهدوء المميت إلى حيث الصخب و الجلبة ، بل و إنه كان ولا بُد وحتماً من فعل ذلك .. صارعت بكل عزيمتي تلك فكرة شريرة بداخلي ، لكن قوى خفية كانت تسيرني و تملك علي جناني و كأنها كانت قوى القدر، و لا أدري إلى الآن إن كانت قوى خير متخفية أم قوى شر سافرة .. لكن العقل و الضمير كلاهما كانا قد سئما وهما يطالعان بأيما آسى الضعف و الوهن يوشكا أن يجهزان علي و يطيحان بكل ما كنت أريد لنفسي من أمجاد و مآثر...

كان عقلي يحار في شأن ذاك الحجر الذي كان من المفترض أن ألقيه و يحركُ المياه الراكدة و كذا يسير بي نحو المجد المنتظر، و ظللت على هذا النحو حتى تفتق ذهني عن فكرة جهنمية التحمت خيوطها في مخيلتي حتى صارت نسيجاً محكماً لا نفاذ منه أو إليه ...

كان الوقت قد تخطى منتصف الليل عندما تسللت إلى خارج غرفتي ، و الحادث أنني لم آخذ شيئاً معي سوى صرة صغيرة من النقود أستعين بها على قضاء حوائجي في تلك المدة التي كان من المفترض أن أغيبها عن البلدة .. مررت على غرفة أبي دون أن يوقفني ما كان يتلوه من آيات بينات و سابقت بقدمي الريح .. و كنت أقول في نفسي .. سيأتي أبي حتما ليوقظني في الصباح الباكر.. سأكون قد رحلت .. قد يُعاني .. و ربما يعن له أن يهيم على وجهه باحثاً عني في أرجاء البلدة .. فترددت قليلاً ، ثم تحركت .

كان والدي هو سائق عربة المؤن الوحيدة بالبلدة ، و دون ما كان يحضره كل يوم من مؤن لكانت البلدة بكاملها يفنيها الجوع و يحصد الأرواح بها كحصد الخريف لأوراق الشجر .. فما كان مني سوى أن اقتادتها إلى مسافة تَبعُدُ فرسخين و نصف الفرسخ فيما وراء الحقول ، أو اللاتي كانت هكذا قبل أن تصير الأرض قحلة و قاعًا صفصفًا و الأبيار جافة و ماؤها غوراً لا يستطيع أحدٌ له طلباً ، و إلى حيث كان يقع

الطريق الممتد في الاتجاه صوب الجبل حيث كان يسكن شرذمةٌ من العُصاة و مُعتادي الإجرام ، و لذا فإن الطريق هناك لم يكن بالمطروق من أحدٍ قط سُوى من هؤلاء الجُناة أنفسهم ، فضلاً عن كونه كان ضيقًا و أشبه ما يكون بالجُرف الصخري الهار الذي كان لا يمكن لاحدٍ السير فيه إلا و هو ماشيًا أو ممتطيًا صهوة جواده أو على درجةٍ عالية من الاحترافية في قيادة المركبات بحيث لا يحدث له أن يزل و يهوى إلى حيث قاع ذاك الجُرف و يصير لقمةً سائغة في أفواه السِباع و الذئاب و غيرهن الكثير من الوحوش اللاتي كانت تسكن قاع ذاك جُرف و تتخذه مأوىً لها تصعد منه ما بين الحين و الحين لتأتي بالطعام لها و لصغارها .

و الحال أنني هبطت من العربة دون أن أصدر أدنى صوت ، ناسياً سترة أبي و أنا في فورة مشاعر الخوف المشوب بالحذر تلك و كذا بشيء غامض كان يد فعني للنزول من العربة على الفور و لا أعلم إلى الأن ماذا كان هو لكن ما أعلمه عنه أنه كان أشبه ما يكون بتلك المشاعر التي تعتري المرء حينما تهديه الأقدار و تسوقه إلى تحقيق مراده على نحو أفضل بكثير مما كان يضع في حسبانه و يريد و يرسم في مُخيلته قبل أن يبدأ سعيه الحثيث في سبيل تحقيق ذاك المراد ، لا سيما و أن الطريق كان مُمتلئاً بالحصى و كنت لا آمن على نفسي من أن يشتم رائحة

الدماء في ساقي اليُمنى _ و التي اصطدمت بقطعة أثاث يعلوها لوح زجاجي مُسنَن نشب بأسنانه في ساقي و أنا خارجٌ مندفعًا كالثور الهائج و ماراً من أمام غرفة أبي و حيث كانت توجد قطعة الأثاث تلك و فوقها المزهرية التي لحسن الحظ لم تسقط و إلا لكان تنبه أبي لصوت سقوطها و فسد كل شيء _ ذئب يكون على مقرُبة ويتنبه لوقع قدمي و يَهِمُ مُسرعاً ليفتك بي . والحادث أن الذئب كان قد أتى بالفعل ، ولكن ذاك كان بفعل روائح بقايا الأطعمة اللاتي كانت لم تزل عالقة بالعربة ، ولكن كان ذاك بعد أن كنت أنا قد غادرت العربة و أخذت أكد في السير صوب البلدة المجاورة ، مدفوعاً بذاك الشيء الغامض الذي ذكرته آنفا ، والتي كان أبي يأتي منها بالمؤن ، عبر ذاك الطريق المهجور ، والذي كان يتفرع إلى اليسار من ذاك الطريق الممتد في الاتجاه صوب الجبل للقادم من اتجاه قريتي الحبيبة إلى نفسي ، والذي ظل يحيطني بخوف وهلع يستطير منهما اللب من جراء ما كان يأتي لأذني ما بين الحين والحين من عواء الذئاب الذي كان يدوي في جنح الليل و تارةً يَقدمُ إلى الأذن من ناحية الخلف حيث قاع الجُرف الصخري الهار و تارة من الناحية اليُسرى حيث كانت تلك الأدغال و الأحراش اللاتي طالما حدثني أبي عما كان بها من خيول برية قوية و فتية تأوي إلى تلك بقعةٍ موحشةٍ

بالليل لتنعم بالجو الرطب و المنعش بعد يوم قيظٍ ضاري و كذا عن الطريق الرملي المختصر الذي يمر وسط تلك أدغالٍ و يؤدي بالقادم إليها من ناحية الجنوب إلي البلدة المُجاورة التي تحدنا من جهة الشمال و تبعد عنا فقط مسافة مسير بعربة المؤن لا تزيد عن النصف الساعة ، و ذلك إضافة إلى حديثه بأيما إعجابٍ عن أشجار البلوط اليانعة و الشاهقة الارتفاع التي تكتنف ذاك طريق رملي سبق له أن اجتاز إياه مرةً واحدةً فقط و وجد نفسه في نهايته على مسافة عشرات الأمتار ليس إلا من الوديان الخصبة اللاتي كان يأتي منها بالمؤن و الأقوات لقريتنا .

و حينما دلفت إلى مشارف حدود الطريق المؤدي إلى تلك البلدة ، استولى علي ضعفٌ و إعياء و سقطت مغشياً علي ... ظللت مستلقياً على الارض عدة دقائق .. لقد كان لدي مطمح أو بالأحرى رجاء في أن أحيي تلك بلدة من جديد بعد ما يكون قد ذهب عنها سكونها المُطبق و فعل بها الجوع فعله ، فتنل به العزيمة و الهمة في النهوض من سُباتها ، و أنل أنا مَجدي حينما أعود اليهم مُحملاً بالمؤن و الطعام مثلي مثل " روبن هود " ، أمير الفقراء كما يحلو للبعض أن يسميه ، و لعل ذاكما مطمح و رجاء هما من جعلاني أفيق بسرعة و أهبُ فزعًا من غشيتي تلك رغم ما كنت عليه من إعياء و جُرح كان لا يزال ينزف بغزارة .

و حينما نهضت و أنا في أيما نشاط و همة و تصميم ، سمعت صوت عجلات تسير الهوينى و هي تستدير ناحية اليمين لذاك القادم من ناحية الجبل و الجبل يتراءى أمام عينيه في مرآة العربة من الناحية اليسرى من حيث يكون هو ثاوياً أمام عجلة القيادة و بالتحديد في ذاك الطريق الوعر و الذي كنتُ قد طرقته منذ قليل ، و رأيت طيف عربة قادمة . فما كان مني سوى أن أوقفتها و طلبت من سائقها أن يقلني إلى حيث المكان أو الوجهة اللذان يمكن أن تكون أجرة التوصيل إلى أحدهما هي بضعة الجنيهات المعدنية التي كانت في صُرتي و التي كنت قد أخرجتها و أنا أحدثه ليتيقن من صدق حديثي و لا يظن بي الظنون ، و ذلك إلى جانب الورقة النقدية فئة الـ ١٠٠ جنيه و التي كانت ترزح في قاع تلك الصرة أسفل تلك الجنيهات المعدنية حتى صارت هي و الصرة جزءاً واحداً تفترش قاعها و تكون بمثابة رقعة قماش لها من فرط ما كان بينهما من التحام و التصاق .

و في تلك اللحظة التي كنت احدثه فيها ، اكتشفت أن تلك العربة كانت هي ذاتها عربة المؤن الخاصة بأبي و التي كان يقودها شخص ذو ملامح قوية تبدو عليه أثار التشرد و الغلظة و الحدة ، لاسيما في خطوط و قسمات وجهه و ذلك إلى الحد الذي جعلني ينتابني ازاءه شعور قوي بالريبة و بأنه أحد ساكني ذاك الجبل و اقتاد العربة بعدما عثر عليها هو ورفاقه و بجوارها الذئاب

و الضباع الجائعة تعوي ، تلك اللاتي لا جرم تفرقن حينما سمعن طلقات الأعيرة النارية تدوي في الأثير و اللاتي كانت تأتي الى أذني فلا أكاد أميز بينها و بين صوت الرعد الذي كان يدوي بهزيزه في شتى أرجاء المعمورة . و تأكد حدسي بأن ثمة حيلة في الأمر بُغية الاستيلاء على المؤن و الأطعمة الخاصة ببلدتنا حينما رأيت ذاك الرجل يرتدي سُترة أبي و التي كان مُعتاداً أن يتركها مُعلقةً على الشماعة خلف باب البيت حتى لا ينسى ارتداءها و اصطحابها معه و هو خارج إلى رحلته التي كان يخوض أهوالها كل يوم و التي أخذتها أنا ليتم لي مُخططي و الذي يبدو لي الآن أنه يحيد عما كنت قد رسمت له من مَسار ، فتلك السُترة كان لا يرتديها سوى رجال لجان الغوث و المعونات الانسانية .

و الحادث أنه دعاني إلى الركوب معه قائلاً :

- " هلُّم ! اصعد أيها الفتى و لا تتردد .. فأقربُ رقعةٍ مأهولةٍ بالسكان و على مقربةٍ من ها هنا تقع على بُعد عشرة فراسخ أو يزيد و لما كانت تلك مبادل للخيل هي على مرمى البصر لا تقدم طعامًا و لا شرابًا سُوى إلى الخيل فقط ، ناهيك عن كونهم أناس غلاظ القلوب لا يدعون أحدًا كائنًا من كان إلى الدخول إلى أماكن مبيتهم و عيشهم و لا يُكرمون وفادته بزادٍ أو شرابٍ . "

والحادث أنني لم أنبس ببنت شفه طِيلة الطريق الذي انعطف هو بالعربة ناحية اليسار من حيث أقلني ليسير فيه و كان

في الوقت ذاته كثير التفريعات ناحية اليمين و ناحية اليسار لما كان يكتنفه من سوق لبيع الخيول في نهايته و كذا مبادل للخيل لمن يقطعون مسافات سير قد تستغرق أيامًا و ليالٍ في سبيل الوصول إلى تلك بلدةٍ تفيض بالخيرات و النِعم و التي كان يظهر في الخلف من الطريق المؤدي لها تلالٌ عظيمة و عند سفح كل واحدٍ منهن و الذي يكون مُتاخماً للطريق الذي كنا نسير فيه و بالتحديد على كلا جانبيه كان يمكننا أن نبصر و نحن قادمين من أعلى و كأننا نهبط جبلاً شامخاً و قبل أن يصير الطريق مستقيماً أطراف أوديةً خصبةً تملئها الخيراتُ و النِعم التي كانت تزخر بها الأشجار.

و كان يجول بخاطري أسئلة مثل : ماذا علي أن أفعل ؟... تُرى ، ما الذي دعا هذا الشقي ليفعل معي ما فعل ؟ لا بُد و أنه يُريدني ستاراً لما يريد أن يقوم به من أفعال غشٍ و تدليسٍ ... و الحال أنني ظللتُ على شرودي هذا حتى جاء صَّوته الجَهوري مُدوياً :

- " ما الذي يُلقي بفتى مثلك في بقعة مكفهرة كهذه التي وجدتك بها دونما أدنى وسيلة تقل إياك إلى حيث تريد و دون غطاء في ذاك البرد القارس ؟ "

فأخبرته و أنا يعتصرني الخوف :

- " حقيقة الأمر يا سيدي أنني جريحٌ كما ترى فضلاً عن كوني مُشرداً و بلا مأوى ، أتيتُ إلى ها هنا لأقصد تلك البقعة الخصيبة علّي أجد بها من يُضمد جرحي الغائر و يهبني المأوي

و الرعاية اللذان أطمح و أتطلع إلى الفوز بهما . "

فما كان منه إلا أن نظر إلي نظرة ارتياح لما كان قد جاء للتو إلى أذنيه من كلمات شنفت أذنيه وكأني به نال ما تمنى ، ثم أردف قائلاً :

- " و ما اسم الفتى ؟

- "مغوار هو اسمي و لا أعلم لي أباً أو أماً.. و ما اسمك أنت ؟

- " اسمي هو رماح ، و الحادث هو أنني لا أعرف لي أباً و لا أماً مثلك تماماً ، فأنا ابن الريح و أمي السماء ، لا أعلم لي أبا أو أما سواهما . و إني لأظنك الآن تعرف إلى من ساقك القدر أيُّها الفتى .. فأنا لصٌ و قاطع طريق . و الحادث معي أنني وجدت تلك العربة و هي على وشك أن تسقط من أعلى جُرف صَّخري هارٍ بعدما انقضت عليها الذئاب من كل حدبٍ و صوب و أخذت تدفع إياها بما كان لديها من اندفاعٍ قوي في الوثوب نحو صندوقها الخلفي حتى بدأ يختلُ توازن تلك العربة و بدت و كأنها قاب قوسين أو أدنى من السقوط صوب قاع ذاك جُرفٍ صخري ، و أما أنا ، فقد شَعرتُ حينما رأيتها مُحاطة بالذئاب أنها تحمل الخير الوفير ، فهوى قلبي صَّعقاً و رأيتُ أن أرتدي سترة السائق الخاص بها حتى لا يرتاب في أمري أحدٌ و أن أستقلها إلى حيث تذهب بي الأقدار التي ساقتها إلي و إلى حيث تحنو علي الطبيعة ، تلك الطبيعة التي طالما استشعرتُ أنها كانت تأويني بلا مقابل ،

وكان آخر صنيع لها معي أن جعلت الذئاب تنفض من حول تلك العربة بأن تصادف صوت الرعد و وميض البرق الخاطف مع قدومي إليهن أحمل عصاة غليظة بإحدى يدي وموجهاً إياها الى الأعلى من أجل أن أُهشم بها رأس من يفكر منهن في الانقضاض عليَّ ، و أنا أقف أعلى منحدر جبلي و صخري وعركنت أغُط في نومٍ عميق فوفه قبل أن أصحو فَزِعاً على صوت عواء هؤلاء ، فظنن أنها بندقية محشوة بالبارود و لُذن جميعًا بالفرار. أحسست حينها بأن الأقدار تريد لي غير تلك عادات بذيئة مَردتُ عليها ، لكنني كنت كلما آتي واحدة منهن كنت استشعر بأيما وخزٍ في ضميري و تؤنبني نفسي و يُقرِّعني الفؤاد الذي كان ولم يزل به تلك النقطة المضيئة في ذاك وجد حزين يَسحق هامتي فلا أُبصر سُوى الدُجى و تلك النقطة المضيئة تتوسطه ولا تنفك تُرسل لي شعاع الأمل فأسير وراءه مُرغَماً كمن سُلِبَ كل قدرةٍ على الفعل ... "

أحسستُ حينها أنا الآخر بأن ذاك و بحق هو الحجر الذي سوف أُلقي به في المياه الراكدة و يُحركها ، فتَهُب بلدتي من سُباتها العميق ... وعلى الفور خاطبت إياه قائلاً :

- " هل لي بأن أعقد معك اتفاقاً ؟ .. إنني آت من بلدة كل ما بها ساكنٌ سكون الموتى .. لا يعلمون شيئاً عن الدنيا التي نحياها هذه سوى أن يَطعموا الطعام و يجرعوا الشراب وأنى يكون

إنجاب الأبناء ، و أما أنا ، و كما ترى ، فيسوقني الطُموح في كل ما أقول و أرى ، و في ذات الوقت ، لا أريد أن أرحل عن بلدتي الحبيبة إلى قلبي تلك رغم كل شيء .. لذا فما قولك في أن تعينني على تحقيق مأربي هذا و أعينك أنا على أن تجدَ لك مأوىً و قوماً لا ينتابك في جوارهم قط الشعور بالاغتراب أو العزلة ؟

- " و أنى لي أن أساعدك في سعيكَ الدؤوب لتحقيق قصدكَ النبيل هذا ؟

- " ما عليك سوى أن تعود أدراجك و تسير ، ممتطيا ذاك الجمل العجوز القادم نحونا و يبدو أنه شارداً و في حالةٍ مزريةٍ للغاية ، في ذات الطريق كثير التفريعات الذي جئنا منه و تنعطف بعدها ناحية اليمين و تسلك ذات الطريق الذي قابلتني في نهايته و عرضت علي أن تقلني معك أسفل الشجرة التي كنت واقفًا عندها بعدما ظللتُ مغشيًا عليَّ لبضعة دقائق هناك لا أدري شيئًا عما كان يدور من حولي ، ثم بعدها تسير فيه إلى أن تصل إلى الطريق المتفرع ناحية اليمين و بعدها تخوض حَذِراً ذاك الطريق المتفرع ناحية اليمين إلى حيث الأدغال و الأحراش و ذاك إلى أن تصل إلى الطريق الرملي الذي يمر في المنتصف مباشرة من تلك الأدغال و يقسمها إلى شطرين و في نهايته إلى اليسار منك حينما تصل هناك بلدتي الحبيبة و هناك عليكَ أن تُبقي

نفسكَ في مأمن من الضباع و السِباع اللاتي يعج بها ذاك الطريق الغير مطروق من أحدٍ سُوى من مروضي الخيول و صائدي السباع و الجوارح من الطيرو ذلك رُغم أنه أقصر في المدة التي يستغرقها من يسلكه قاصداً إحدى الوجهتين ولن يكون لكَ هذا سُوى بأن ترتقي إحدى أشجار البلّوط اللاتي تكتنف ذاك الطريق من الجانبين ، مُمتطيًا الحِصان الذي سوف أشريه لك بتلك الورقة النقدية الوحيدة معي و قدرُها ١٠٠جنيه و يكون ذاك من سوق بيع الخيول الذي هو أولُ ما سوف أمُرُ به و أقف عنده في طريق عودتي و أنا مستقل تلك العربة و بعد دقائق معدودة من انطلاقك ومُغادرتك لنا،فهو وكما ترى باد في الخلف منا مباشرةً و لكن يفصل بيننا طريق رملي غير مُمهد و عليَّ أن أستمر في السير بالعربة إلى مكانٍ يمكنني الانعطاف عنده و من ثم تغيير اتجاهي و السير إلى أن أبلغ الطريق المُمهد المؤدي في نهايته إلى ذاك السوق المترامي الأطراف شرقًا و غربًا ، و ما عليك حينها سوى أن تخبر إياهم أنك رأيت في طريق عودتك حَفنةً من اللصوص يقطعون الطريق على فتى صغيرو يأسرونه هو و العربة التي كانت بحوزته لِما كان فيها من خيرٍ وفيرٍو أقواتٍ تكفي لإطعام٥٠٠ نفس أو يزيد ... "

فقاطعني هو بكلامهِ قائلاً :

- " لكن أني لك بذاك حِصان يَسير في ذات الطريق الرملي الذي حدثتني عنه و الذي أنا مُقبلٌ عما قليل على أن ألجَ في

سبيل الوصول إليه تلك الأدغال و الأحراش ، غير مُبالٍ بما قد يحيق بي من أهوالٍ و مَخاطر سبق و أن خُضتُ غمارها من قبل مراتٍ و مراتٍ ، _ كعادة كل من شَبَ و نشأ في أحضان بيئةٍ صحراويةٍ قاسية ، و لكن لم يكن هذا في سبيل ذاك القصد الطوباوي النبيل الذي أنت من وراءه و من وراء كلاكما الله سبحانه يهديك إلى ما فيه الخير و الصواب _ ، دون أن يضلَّ أو يأخذ طريقًا آخرًا ؟!

- " هل فاتك أن تلك مبادل و سوق لبيع الخيول و اللاتي مَررنا بها جميعاً و الكائنة على مسافاتٍ متباعدةٍ على طول الطريق المؤدية إلى البلدة التي هي الآن على مرمى البصر و التي نحن على مشارفها إنما يأتيها الخيلُ من تلك الأدغال و الأحراش اللاتي أنت مُتوجهٌ _ عبر ذاك الطريق الذي هو في الخلف منا ممتطياً ذاك الجمل العجوز الذي لن يقوى على العَدوِ بكَ إلا إلى حيث بداية الطريق المؤدي إلى الأدغال و بعدها تهبط من فوقه و هو بعد يَلهثُ مما سيكون قد قطعه من مسافة سير مُضنية _ إلى أن تلج فيهن و يَعجُجن بالخيول البرية اللاتي يصعُب امتطاؤهن لولا ما يخضعن له من عمليات ترويض مُضنية على أيدي مُروضين مُدرَّبين و مَهرة و لإياهم باعٌ طويلٌ في تلك المهنة الشاقة و أنه ما أن أشري ذاك حصان من سوق الخيول ، الذي هو في الخلف مني و أنا أحدثك الآن داخل العربة و أوليه دُبري ، و أضع إياه في صندوق العربة الكبير

بالخلف و أصلُ به إلى حيث بداية ذاك الطريق الرملي بعدما أكون قد انعطفتُ بالعربة ناحية الجهة الجنوبية و بالتحديد في الطريق المتفرع ناحية اليمين و الذي يؤدي بالوالج فيه و مباشرةً إلى ذاك الطريق الرملي و لا يُمكن لأحد أن يمتد بصره و يتابعني بنظره إلى حيث ذاك الطريق الواقع على مسافة تزيد عن النصف فرسخ و لما سوف يكون مخيمًا حولنا من ظلامٍ دامس كما ترى و لما كانت عربات المؤن بعدها لم تصل إلى حيث يتفرع ذاك الطريق الذي نحن فيه الآن _ ذاك أن الموعد الذي تلوح فيه أولى تلك العربات كان متزامنًا مع بزوغ أول شعاع للشمس تمامًا كما أخبرني أبي من قبل _ و يتلاقى مع ذاك الطريق الذي قابلتني في نهايته و عرضتَ عليَّ أن تُقلني إلى حيث نحن أي أن أولاهم سوف تكون تَبعُد عني و أنا أقتاد العربة صوب ذاك الطريق بما يزيد عن العشرة فراسخ _ و ذاك قبل أن أعودُ مُحملاً بالمؤن من نقاط التخزين العشر المجاورة جميعها لمَبادل الخيل الموجودة على مسافات متباعدة فيما بينها و على طول الطريق المؤدي إلى البلدة المجاورة التي نحن على مشارف أوديتها الخصبة الآن و قبلها جميعًا سوق بيع الخيول الوحيد الذي هو مُتاخمٌ لتلك الأودية و يبعد مسافةً ميل أو تزيد عن السوق الذي قبله من الناحية الشرقية و الذي بعده من الناحية الغربية و الواقع فيما وراء تلك

البلدة العامرة بالخيرات و النعيم و لا تجدَ فيها موطنًا لقدم إلا و فيه زرع أو مرعىً للأغنام و الماشية _ ثم بعدها أهبطُ و أفتح له باب العربة على مصراعيه حتى يجد نفسه بالسليقة يعود أدراجه من حيث أتى و إلى حيث ينتمي ، و من ثم تلاقيه أنت و تستميل إياه بما لك من ملامح قوية تُضاهي بها ذات الملامح الخاصة بمُروضيه و الذي كنت قد رأيت أحدهم ذات مرة حينما اصطحبني والدي معه لنأت بالمؤن و كان ما أشبهه بك و أشبهك به و هو يروض ذاك الحصان البري الذي انتوي أن أسيره إليك في ذاك الطريق الذي ما تلبث أن تصلَّ إليه و ترتقي إحدى أشجار البلوط و الواقعةُ في نهاية تلك أدغالٍ أنت موشكٌ على اجتيازها بعد قليل ، و هي المرتعُ و المرعى لتلك خيولٍ بالليل كلما أنهكها و أعياها جو البادية بقيظها المُضني و وحوشها الضارية ، و يَدُب الخور في أوصالك حتى تجده في الأسفل منك تقوده حاسة الشم القوية لديه إلى حيث أنت و ما يلبث بعدها أن يلوذ بالانقياد و الخضوع كما عَودتَه أو بالأحرى كما عَوده شبيهُكَ و حينها تهبطُ مسرعاً لتمتطيه مُسرعًا به إلى بلدتي قبل أن ينبلج الصبح و يفيق الناس ... و الحق إني لأظنك أنت هو بما لديك من سيماؤه ، بل و حتى رائحة جسده و هو يتعرق و بالأخير تلك الحبال الغليظة اللاتي أراك تعلقهن أعلى كلتا كتفيك و في طرف كل واحدٍ منهن تلك الوهقة التي يلجأ إلى عملها المروضون للخيول

البرية أثناء اصطيادهم و ترويضهم لها ...

- " آه ، يا إلهي ! أأنت ذاك الصبيُ الصغير الذي كان في صُحبة أبيه و فرَّ منه حينما رأني و أنا أُروضُ ذاك الحِصان البري الجامح الذي استعصى على الجميع و كنتُ أنا من أجادَ في ترويضهِ بعد جُهد مُضني ... نعم ، كان ذاك الأمر إبان شروق فجر ضميري و الصحوة التي انتابتني فارتاء لي حينها أن أكسب قوت يومي من عمل يدي و عن طريق مهنة أُجيدها ببراعةٍ فائقة و لكن اللصوص في الجبل أعادوني قسراً إلى حيث كنت أنتمي ، إلى البيداء ، و وضعوني قيد الرقابة اللصيقة حتى لا ألوذ بالفرار مرةً أخرى لما كُنتُ أنا المصدر الوحيد و المَورد المُتجدد الذي كان يأتي لهم بالخيل المُدرَّبة و المُرَّوضة كلما أصاب بعض خيولهم عجزٌ أو وافت إحداهن المَنيةُ في إحدى عمليات السطو اللاتي كانوا يقومون بها و تجري المُلاحقةُ أو المطاردةُ لهم من جانب من سطوا عليهم أو رجال الشرطة و يجري تبادُل لإطلاق النار بين كلا الطرفين ... نعم ، أذكرُ تلك اللحظة التي كنتَ تُحاول أنت فيها أن تعبرَ السياج ذا القضبان الحديدية المتراكبة فوق بعضها البعض ، الغليظة و المرتفعة عن سطح الأرض بما كان مقداره عشرة أمتار أو يزيد و لم يكن ذاك فقط بُغية الحيلولة دون فَرار تلك الخيول عبر القفز من فوق ذاك السياج بل من أجل

الحيلولة دون اقتحام الاطفال المهووسين أمثالك و لا سيما المتهورين منهم إلى الداخل و مُتابعة ما كان يحدث عن كثب و كأنها كانت نزهة و ليست مهمةً انتحارية قد يفقد القائم عليها حياته في أية لحظة وهو يضطلع بها ، هو و كل من تسوقهم الأقدار إلى داخل ذاك مضمار لترويض الخيول البرية .... و لكن أنى لك بتلك شُحنةٍ من المؤن تكفى ل٥٠٠نفس أو يزيد و قبل أن ينبلج الصبح ؟!

- " لا تقلق ، فقد اعتاد أبي أن يستبقي جُزءا من تلك المؤن عند نقطة تخزينية معينة تكون على مقرُبةٍ من مبادل الخيل من أجل أن يقتات عليها الشريد و المُجهَد ، و كان مدفوعًا في فعله هذا بيقينه أن القائمين على تلك مبادل كانوا أناسًا فيهم شُح و جُنوح إلى الإيمان بالنفعية في اسلوب حياتهم ، وكذا كان يأخذُ منها هو في حال ما توقفت المَعونات أو انخفضت عن المُعدل المُعتاد كما سبق و حدث معه من قبل من جانب من كانت أصواتهم بدأت في أن تعلو داخل البلدة المليئة بالخيرات احتجاجا على مثل ذاك الذي يرونه و يُوصفونه على أنه اسراف و تبذير لثروات البلدة و خيراتها دون عائد يُرجى .

و الحق أنني كنت أعرف أنه ظل يفعل هذا الأمر على مدار عشر مرات متتالية و في نقاط تخزينية مختلفة و متباعدة فيما بينها و إن كانت متجاورة و كذا كنت أعلم أنه لم يحدث مرة و راح يأخذ مما أتاه الناس شيئًا ، و في كل مرة كانت المؤن

تكفى لـ ٥٠ فرد ... "

والحاصل أنه حينما أتى " رماح " إلى البلدة ، استيقظ أهلُها جميعًا لما كان يُصدره حِصانه من صَّهيل لم يعتادوا سماع مثله منذ زمن طويل ، فجميعهم كانوا من ذوي الاجسادِ المُترهلة اللاتي كان لا يمكن لها امتطاء الخيول ... و أخذ " رماح " يَخطُب فيهم قائلًا و هم يلتفون من حوله مشدوهين و مذهولين :

- " يا أهل بلدة الفتى المغوار ، ألا يستولي عليكم الشعور بالخجل و الخزي و أنتم قاعدون ها هنا و فتى صغير هناك أعلى الجبل ظل يُقاتل من أجل المؤن خاصتكم و كذا العربة التي كانت تقله هو و تلك المؤن ... لقد أُسرَ ذاك الفتى الجسور و هو الآن بحاجة لمعونتكم ، مَعونتكم أنتم يا من تقبعون هنا كالموتى في القبور و رحى الدهر من حولكم تطحنُ ... لقد أقلني فتاكم _ فيما بدى لي جليا لاحقاً أنه كان قد تسلّلَ و أخذ إياها دون أن يراه أو يتنبه إلى تسلُّلهِ أحدٌ إلا حينما عَمدَ إلى الانطلاق بها فاراً و دوى صوت المُحرك الخاص بها في أحضان تلك البقعة الجبلية فهَبَ هؤلاء الذين لا أفئدة لهم و امتطى كلُ واحدٍ منهم صهوةَ جوادهِ مُسابقاً به الريح العاتية في تلك الآونة طالبين الثأر ممن خدعهم و استرد منهم ما كانوا قد سلبوه إياه دون أن يريق في سبيل ذلك نقطة دم واحدة _ معه حينما عيي حصاني و لم يَقو على المسير و ظل هو يُحارب قاطعي الطريق و لُصوص الجبل حينما لحقوا بنا و أجبروه على الوقوف بما كانوا قد أطلقوه من رصاصات على إطارات

العربة الخلفية و أحدثوا بها ثقوبًا غائرة و الحادث أنهم ظلوا يفعلون ذلك حتى فرغت بنادقهم مما كانت محشوةً به من طلقات و صارت كهراوةٍ غليظةٍ تفوح منها رائحةُ البارود و ظل هو يُقاتلهم على ذاك النحو بهراوته حتى أمكنه أن يُفلتني من قبضتهم و سقط هو بعدما تمكنوا هم منه بعددهم و كثرتهم لا بقوتهم .. و ها أنا ذا الآن أمامكم أردُ إليه صَّنيعه معي و أنتظر منكم أن تأتوا مثل ما أتيتُ أنا .. "

فما كان من أهل البلدة إلا أن قالوا في نبرة صوت حادة و دفعة واحدة :

- " خذنا إلى " مغوار" ، فلن نخليه هكذا أبداً ما حيينا ، و إلا فإنه العار الذي لن يمحوه الزمن و كذا الفناء المُحقق ... "

و الحادث أن أصوات الذئاب و السباع ، و هن بصدد التصارُع المميت على من يكون صاحب النصيب الأكبر و الأوفر من ذاك صيد ثمين أعلى الجبل ، كانت تجعلهم يتلكؤون و يُبطئون السير ، و لكنهم كانوا حينما ينظرون إلى حَمية " رماح " و هو يتقدم صَّوب الخطر دونما أدنى تردد ، فإنهم كانوا يُواصلون التقدم في جسارة لم يعتادونها ، لاسيما و أن مَردُها كان الخوف من الفناء المُحقق إذا لم يتسنى لهم إعادة العربة و المؤن اللاتي كانت بها و التي ظنوا هم ، وأبي معهم ، و استقر في وجدانهم بعدما قَصَّ عليهم " رماح " النصف الثاني من القصة كما تَصورَّه هو ، أن اللصوص كانوا قد سرقوها من حيث كانت واقفة بعدما

تيقنوا أن البلدة كانت تغط في سُباتٍ عميق ، و اقتادوا إياها الى حيث كان يذهب أبي من اجل أن يستولوا على ما كان يحضره من مؤن ليكون طُعمة خالصةً لهم ، بعدما يكون قد انقطع عنا وسيلة التنقل الوحيدة إلى خارج البلدة ، الأمر الذي سوف يترتب عليه لا محالة فناؤنا ، و ظنوا هم أنني من استيقظ على صوت هؤلاء اللصوص و هم يسرقون العربة ، فما كان مني حينها إلا أن طاردتهم حتى عييت بعد أن قطعت مسافة عَدوٍ متقطعٍ لما يزيد عن أربعة فراسخٍ و نصف الفرسخ ، ثم انتظرتهم عند سفح الجبل من الجهة الخلفية و حيث كانت مَرابض خيولهم و بالتحديد خلف صخرةٍ عملاقةٍ لا يتسنى لهم رؤيتي و أنا قابع خلفها في ذاك الظلام الدامس و أحتمي بها من الذئاب و الضباع الجائعة و استمر ذلك إلى أن عادوا من البلدة المُجاورة و التي كنا أنا و أبي نأتي منها بالمؤن و دخلوا جميعاً إلى داخل المغارة و يحمل كل واحدٍ منهم سلاحه بالكاد من فرط ما كان يستولي عليهم من شعورٍ بالإعياء من طول العناء الذي ذاقوا إياه في تلكما الرحلتين من الجبل إلى بلدتنا و العكس و من الجبل إلى البلدة ، التي كان يقصدها الجميع ليتسولون قوت يومهم ، ذهاباً و إياباً في ظل ظروفٍ و أجواءٍ صعبة للغاية و هَممتُ أنا حينها إلى العربة لأقتادها بما كان فيها من مؤن تكفي لخمسمائةٍ من الافراد ، كانوا هم عدد السكان في بلدتي ، لأصل بها إلى قريتي و في

الطريق قابلتُ هذا " الرماح " لأنقذه من الفناء هو و حِصانه المُجهد ... و لكن لم يَكد يمضي عليَّ وقتٌ طويلٌ و أنا اقتاد السيارة حتى فوجئت بشرذمةٍ من أولئك اللصوص يُلاحقونني و هم يمتطون خيولهم اللاتي كانت تسابق الريح و حَدث معي ما رواه لهم " رماح " ، لا سيما و أن الطريق التي كنت أسير فيها عائداً إلى قريتي و التي كانت هي ذاتها من عدوتُ بها خابًا خبب الخيل في أعقاب أولئك اللصوص كانت غير معبدة و غير مُمهدة ... و هكذا كانت رؤيتهم لما كان من المتصور أنه حدث معي ...

والحاصل أنهم حينما دلفوا إلى مجاهل الجبل و أخذوا يصعدون إياه أعلى الصخور المُحدبة و المُسننة المؤدية إلى إحدى المغارات المُعلقة في أعلى الجبل ، كان " مغوار" ، مَن يُحدثكم الآن ، قد سَبقهم إلى أعلى و عَمدَ إلى نثر الدماء على الطرق المؤدية إلى مَدخل المغارة و التي كان يقبع بين جدرانها لُصوص الجبل ... و كانت تلك الدماء لظبي وجدتُه شاردًا و أنا في طريق عودتي من مَبدل الخيل و كان ذاك الظبي ينزف بغزارة من ما بين رقبته و بطنه من أثر مدية حادة النصل و طلق ناري _ بدا و كأنه كان قد أُطلقَ من بندقية صيادٍ محترف صرفه عواء ذئب أو زئير أسد عن صيده الثمين و ما كان يحويه من خاتمٍ ثمين كان يسطع كشعاع الشمس في حُلقوم ذاك المسكين الذي كان هو قد عمدَ بمديته إلى إحداث ثُقبٍ في عُنقه و راح يمتد

بها إلى أسفل حيث المكان الذي أصابه ببندقيته منذ قليل ماراً بها بين كلتا قدميه الأماميتين ثم مُنعطفاً بها من ناحية الخلف من القدم اليُسرى الأمامية له و بالتحديد إلى مكان الطلق الناري الذي كان هو الآخر قد ترك جرحاً قطعياً ممتداً على سطح الجلد يصل من مكان الإصابة إلى حيث ما بين قدمي الظبي الأماميتين _ كان ما بينهما من جُرحٍ قطعي غائر ، جرى إحداثه بفعل تلك مديةٍ كما سبق و أسلفنا ، يصلُ ما بين هذين الجزئين و يجعله ينزف على ذاك النحو المفرط ، فآويته من البرد في عربة المؤن و تحديدًا في الخلف منها و حاولت جاهدًا أن أضمد جراحه قدر الامكان و أنا بعد كنت أظنه لم يزل على قيد الحياة لكنه كانت قد وافته المنية في الحال ما أن ولجت و أنا أحمله من باب عربة المؤن الخلفي و الذي كنت قد فتحت إياه على مصراعيه استعدادا لتلقي جثمانه الجريح و الذي كان لم يزل نازفا بغزارة و أخذت أنا ، ما أن استيقنتُ عبث محاولاتي الجهيدة لإبقائه على قيد الحياة و التخفيف من آلامهِ ، ملئ إبريق من هذه الدماء و أغلقت فوهة الإبريق بإحكام و كذا تلك التي كان يهبط و يسيل عبرها الماء حينما يتناوله أبي ليتوضأ و ذاك من أجل ألا تفوح أو تذيع رائحة الدم في الأثير فتشتمه الذئاب _ أو بقية تلك الذئاب الجائعة اللاتي ما أن يطعمن من ذاك الظبي الهزيل الذي ألقيته لهم من فوق ذاك الطريق الضيق و الأشبه ما يكون بالجرف الصخري

الهار ليتلهين فيه و يزيد حُنقهن حين لا يصلن إلى حد الشِبع ، سيما اللائي لم يطعمنه منهن ، و يتبعنني إلى حيث أنا ماض بالعربة التي كنت اقتاد إياها في أيما حذر و أنا أعبر فوق ذاك الطريق إلى أن وصلت بها إلى حيث خلف الجبل ـ و تَهمُ لتفتك بي قبل أن أتسلق ذاك الجبل إلى أعلى و إلى حيث كانت تلك المغارة التي كانت ثاوية هناك و سقفها الذي يكاد أن يتداعى من فرط ما كان مُشبعاً بمياه الأمطار و تنخر فيه عوامل التعرية والتآكل ، و الحادث أنه حينما اشتمت الذئاب و الضباع ، اللاتي بعدها كانت لم تزل تتضور جوعًا ، رائحة الدم عبر الأثير ، أخذن في تتبع أثر تلك الرائحة و الصعود إلى حيث كان مصدر تلك رائحة مهيجة و دلفن إلى داخل تلك المغارة و أخذن ينهشن في أوصال كل من كانوا فيها ، ما عدا ذاك الفتى المغوار الذي كان يُمسك في كلتا يديه مِشعلين بديا و كأنهما شُعلتي نار و هما ما كان قد تبقى من مَشاعل كانت موجودة على طول الطريق المُؤدي إلى المغارة ، و تلك المشاعل هي ذاتها اللاتي كانت في السابق تحول دون أن يجول بخاطر تلك الذئاب و غيرها مجرد فكرة أن يَصعدن ذاك الجبل أيا ما كان ما يشعرن به من هياج و هي الآن ما تحول دون خروج الذئاب و السباع هَلعةً من مشهد السقف و هو يتداعى فوق رؤوسهن و أجساد من كن قد فتكن بهم و مزقنهم إربًا بعدما أشعلتهن أنا مرةً ثانية و وضعتهن جميعًا عند مدخل تلك المغارة على هيئة كومة من الحطب حتى

صارت نارًا عظيمة و مؤجَجه لم يمكن لواحدٍ من هذه الذئاب أن ينفذ عبر ألسنة اللهب المتصاعدة منها ، تلك الألسنة التي أسرعتْ من وتيرة تداعي ذاك السقف لتلك المغارة ، ذاك السقف الذي عمدت إلى ضربه و أنا أتناوب الوقوف على أطرافه ، في خفةٍ مشوبةٍ بالحذر بتلك هراوة كنت قد أخذتها من " رماح " و رُحت أُكثف من حدة و وتيرة تلك الضربات بالمفارق الأربعة لسقف تلك المغارة حتى يهوي كُتلةً واحدة على من كانوا بالأسفل و لا يُبقي منهم أحداً .. و الحادث أنني و على الفور هبطت من هناك حينما شعرت أنه بدأ يتهاوى و عمدتُ إلى اشعال النيران بما كان لدي من مشاعل بعدُها مُضرمة في تلك اللاتي كنت قد تركتهن عند مدخل المغارة ، و الدماء تكسو أجزاءً بهن و تفيضُ إلى حيث داخل تلك مغارة مُحدثةً ما كان يشبه الجدول أو القناة في تلك تربةٍ رمليةٍ عطشى للإرواء مذ سنين ، على هيئة كومة من الحطب عَبرَّ من فوقها الذئاب و السِباع و هن يَمضين إلى حيث كان اللصوص يقبعون هناك بالداخل آمنين إزاء فكرة أن لا ذئب يمكنه أن يقتحم عليهم تلك مغارة حَصينةً بما كان قد وُضِعَ و موجوداً في الدروب الوعرة المؤدية إليها من مشاعل مؤجَجه على الدوام و صُخور مُحدبة و مُسننة ، كان سُقوط السقف مُدويًا و عواء الذئاب و زائير الأسود مُرعبًا إلى الحد الذي جعل أقرانهن في الأسفل ممن لم يلحقن بهن و كُن قِلةً قليلة يفررن مذعورين إلى حيث أبعد نقطة في الأدغال و الأحراش .....

و الحال أنه حينما هبطت و بيدي تلك المشاعل ، قوبلت بأيما حفاوة و تهليل من جانب أهل بلدتي ، لا سيما أبي و الذي طالما حَلُم بتلك لحظة يرى فيها البلدة في طَور التغيير و يرى ابنه في بؤرة ذاك الحدث المُذهل .. و الحاصل أنه حدث و أن اصطحبتهم معي الى حيث كانت ترابط العربة في بقعةٍ خَصبةٍ خلف الجبل و مِن حَولها بضعةٌ من الخيول لأولئك اللصوص و كذا كانت جميع المؤن بداخلها..و رُحتُ أنا أخطُب فيهم قائلًا :

- " إما أن تعودوا أدراجكم إلى البلدة حيث الراحة و السكينة و البُعد عن الخطر ، و إما أن تعمدوا إلى زراعة تلك بقعة و تروحون و تغدون منها و إليها كل يوم حتى تصير مَورد رزقكم و تكفون عن تسول أقواتكم من أُناسٍ قد ينقمون علينا في يومٍ من الأيام ، و نجدُ أنفسنا ما بين يوم و ليلة عُرضةً للجوع من بعد شِبع و للخوف من بعد أمن ... "

فأتاني الجوابُ على الفور بأن لبيك و سعديك و أن قُد إلى ما يُرضي الإله عنا من فِعل الخيرات ، فنحن رهن اشارة من يديك .

و الحاصل أنهم يوماً بعد آخر كان التغير يتجلى باديًا و بقوة في ملامحهم ، فقد صار عُودهم قويًا على غير ما كان مُعتاداً و صارت مِشيتهُم مُعتدلة و عادت الصِبغة السوداء تكسو من جديد خصيلات شعرهم و كأن الشباب قد عاد إليهم مرة اخرى ... ما عاد هناك ذاك اليأس و الخمول اللذان كنت أراهما بوضوح في ثنايا وجوههم .. و الحق أنه كانت في أوصالهم و هم يَكدون حَميةٌ

وكأن الواحدُ منهم بدا وكأنه طائرًا جارحًا أو حيوانًا مفترسًا قد أوذي وحُبس في القفص وحُظرَ الاقتراب منه على كل ما كان من شأنه أن يعيق نَهمه وتَعطشه الى أن ينظر و يَطِلع إلى السماء وصَّوب الأشجار، ولم يكن ذاك النهم سُوى النهم الخاص بنداء الفطرة والطبيعة اللتان جُبِلَ الناس عليهما مذ بدء الخليقة ...

وأما أنا و" رماح "، فقد صِرنا صديقين تجمعهُما أواصرُ علاقة لا انفصام لها وكان يُشار إلى كلينا بالبنان على أننا أصحاب الفضل في أن تتحرك مياه البحيرة الراكدة وتعود إلى سابق فيضها واغداقها ...

رِحلةُ العِبرات

جاءَ تَقيٌ عَلى مَهَل، يمشي كأنه يَبتَهِل . فخاطبه أباهُ ذو العقل ، في لهجةِ جَريحٍ يَحتَمِل :

_ أين كنتَ و المطرُ مُنهَمِر ؟

فقالَ و قَلبُهُ يَنفَطِر :

_ كنتُ أُعاينُ القَمَر ،أظلَّ مَكانه أم انحَسَر ؟فَوجدتُه لِمكانِهِ لم يَذر.

_ و ماذا في ذاكَ مِن عِبَرْ ؟

_ إنها حِكمةُ إلهٍ مُقتَدِرٍ، نُورهُ يُضيء وَسط المَطَرِ ..

_ و ماذا دَعاكَ لذاكَ أمرٍ ؟

_ أحسستُ بأن عِلمي مُعتَبَر ، فأردتُ أن إياهُ أزدَجِر .

_ فَخورٌ بكَ و دائمًا أفتَخِر ، غير أن مُرادك عني مُنحَسِر .

_ إلى ما صَّاغه الانسان أطِلْ النَظَر ، لتَعلمَ أن فِيهِ دَومًا الخَطَر . نُورُهُ و الماءُ يؤتيان الشَرَّر ، و نيرانًا لا تُبقي و لا تَذر . أما نُورُ الإله المُقتَدِر ، فخَيرٌ جَمٌ أبدًا لا يَنحسِر . لَولاهُ لهَلَكَ البَشَر ، و ما عُلِمَ لإياهم مَثوىً و لا مُستَقَر .

_ صَدقتَ و ما زاغَ مِنكَ البَصَّر ، فالله بمِشكاةِ نُورهِ يَختَبِر . والعَبدُ إن طالَّ مِنه النَظَر ، عَلِمَ ما لَّه مِن قَدِر . فعِلمُهُ ليس لَّه أن يَمُر ، و يَعبُرَ حاجزَ القَديرِ المُقتَدِر. ألدَيكَ المَزيدَ و لم تَزَلْ تَدَخِر ، مِن رِحلةٍ خَيرُها مُعتَبَرْ ؟!

_ نعم ... رأيتُ شَيخًا يَحتَضِر ، و كان كأنه إياي يَنتَظِر .

تَبسَّمَ ضَاحِكًا بِقَلبٍ يَنفَطِر ، قَالَ : لِما تُطِيلَ النَظَر و تَنبَهِر ؟
فأجبتُ بلسانٍ لا يُبينَ الخَبَر :
_ أكُنتَ تَتَوقعَ مَجيئي و تَنتَظِر ؟
_ نعم ... فكُلُّ شَرٍ قَدْ قُدِرْ ، صَائغهُ لِعبدهِ يَختَبِر .
و أنا دومًا على البَلاءِ مُصطَبِر ، و إلَّهي بِحالي يَعلمُ و الصَّبْر .
فكُلَّما اشتَدَ الكَربُ احتَضَر ، و كُلَّما حَلَتْ الدُنيا ظَهَر .
فلَّمْ أجدُ مِن دُعائي مَفَر ، و الحَمدُ لله أنه أثمَر .
_ ذاك جُرحٌ غَائرٌ كالثُغرِ ، أجريتُ خِياطةً لِمثلهِ عِند الظُهُر .
يَعوزهُ الوقتُ الكثيرُ لِيندَمِل ، فماذا عَساي أفعلُ لئلا تَحتَضِر ؟!
_ هاكَ سِكينٌ أسفل الشَجَر ، صَّار نَصلُّها لَهبًا مِن الجَمْر . أوقدتُ عَليهِ مِن الحَجَر ، فصَّارت لَهبًا يَستَعِر . لَمْ تُطفئُها الرياحُ الكُثُر ، و لا طُولُ انهمارِ المَطَر . إنه دُعاءُ المُستَجير عِند القَهْر ، يَسمعُها الالهُ فَيُزِيلَ العُسر .
_ فأمسكتُ السِكينَ و قَلبي يَنفطِر ،لِجلالِ مَشهدٍ بخاطري لَمْ يَمُر .
كَويتُ الجُرحَ الغائرَ المُنقَعِر ، فغُميَّ عَليهِ و ألمهُ مُشتَعِل .كلماتُ الحَمدِ و الشُكرِ لَمْ تَذر ، لحظةً فَمَهُ المُتَبَسِمَ العَطِر ...
فقاطعَ أبي بدَمعٍ مُنهَمِر :
أظلَّ مَغشيًا عَليهِ أم عَبَر ؟
_ بَلْ عَبرَ غَشيتهُ و انتَصر ، و ذَهبَ إلى حَيثُ شاء القَدَر .
_ أو تَعلمَ إلى أين سَاقهُ القَدَر ؟ إلى أبيكَ لِيُزيلَ الكَدَر .
_ و كيف ذاكَ أمرٌ قَدْ قُدِر ؟! يُطيلُ مِنه الفَردُ النَظَر .

_ كان مَدينًا لي بنقودٍ كُثُر ، و كُنتُ مِن الضيق أعْتَصِر . فدَعوتُ الالهَ أن يَذكِر، و يأتي بِه في لَمْح البَصَر...

_ هذا مِن الأمور النُدُر ، يَحوزهُ مَن في دُعائِه يَصطَبِر...

_ نعم ... إن دُنيانا مُختَبَر، للامتحان تَلو الامتحان تُجِر.

فمَنْ عَلى بلاءهِ يَصطَبِر ، مِن عَثراتِهِ دَومًا يُجَر.

_ صَّدقتَ ،و مَن بِغَير ذاكَ يُشِر ؟! إلا مَن هو كذابٌ أشِر. ألا سُعدًا لكل عَالمٍ مُبتَكِر ،يسعى و يَعلمُ أن لِعِلمِهِ قَدِر ! و أن في ذاك خَيرٌ مُتصل، فعلمُ كُلِ شيءٍ أمرٌ نُكر. فالإنسان عالمٌ ما دامَ يَبتَكِر ، و يُتبِعُ علمَهُ بدوامِ الشُكر. و ما يأتي العلمُ الوَفِر، سُوى لفؤادٍ داعٍ مُذَكِر .

_ هلُّمَ لنَنل الحظَ الوَفِر، مِن نَومِ العينُ به تَقَر . عسانا بطول النَومِ اعياؤنا يُزدَجَر ،فنَصحو على نشاطٍ و جموحٍ كالمُهر . فطول النومِ يُذهِبُ مِن الذهن الفِكر ،ليعودَ بالنشاطِ مُفعمًا و بالأريحية مُزدَهِر.

_ ذاك و الله القولُ الفَصِل ، بهِ يُدفَعُ كُلُّ خَبَل . فرَّبُ الناسِ لا يُعييه السَهر، و ينامون ليدرؤوا عن أنفسهم الفِكر . و هو سبحانه لا يَكِلَ و لا يَذَر، شاردةً و لا واردةً إلا لها حَصَر . فليعقل الانسان تلك عِبَر، و يَعلمَ أن لإدراكهِ قَدَر. و مَهما عَلَّيتَ صاحبَ البَصر، فأبدًا لكُلي القُدرةِ لن تَصِّل . هو وحدهُ مُسيرُّ القَدَر، و نحن بطاعتهِ نأتَمِر . عنه أمرٌ قط لا يُستتر، فأخلِّصوا النِيةَ يا بني البَشر . فالله يُعطي العِلمَ على قَدِر، تُقى العبدِ و دُعاءهِ

المُصطَبِر . فكُن على دربِ العِلمِ حَذِر ، فاقتناؤه يَعني سَعيٌ مُستَمِر . ولو اقتنيتَ مِن العلمِ نَهر، فإعلم أن أمامك غيرَ نَهر. فما خُلقتَ إلا لتَعشَ الدَهر، و تُعمرَ الكونَ و يَخلُّفكَ كُثُر. يأتون مِثلك بلا إدراكٍ ولا بَصر ،وحين يُدرِكون فموتورٌ ما يَصِل.

امرأةٌ في وعاء

ذات مرة ، انتابني شعور بأن جِسمٌ مُضيءٌ قَد تَسلَّلَ إلى حَيثُ تَحت جِلدي و في ثنايا عُروقي ، فصَّحوتُ مِن غَفوتي مُرتعدًا كَمَن مَستهُ جُّنه ، غير أنني لَّمْ أجدُ أدنى اثر لذاك الجسم المُضيء سُوى أنه كان لَّمْ يَزَلْ يَبُثُ اشراقَهُ و ضِياءهُ في أعماق أعماقي ، حَتى أنني استشعرتُ وكأنني لا ازالُ غافيًا ولَّمْ أصحو مِن نَومي بَعد .... فجِلدي و بَشرتي قَدْ خَليا مِن كُل ما قَدْ يُشير إلى نَفاذ أي شيء خِلالهما ، كبيرًا كان أم صَّغيرًا ... و ظَلَّ السؤالُ الذي يَدورُ بخلدي هو : أنى لِمثل ذاك أمرٍ أن يَتمثلَّ لي و أظُنُ وكأنني ازاء نور كوكبٍ دُري يَبعثُ بهالاتهِ الضوئيةِ ليأسرَ بها الفؤادَ قبل البصر ؟!

وبَعد مُضِي دقائق مَعدودةٍ و أنا على هذا الحال مِن الاندهاش و العَجز عن الاستجلاءِ لِما كان مِن المُمكن أن يَكون قَدْ حَدَث ، فاجئني إحساسٌ كما لو كان هذا الجَسدُ يُريدُ الخروج مُهرولًا و بِغَير أن يَنظُرَ إلى الوراء ، إلى حيث الجَسد الذي وَعاهُ و لَّمْ يُبْدِ تَبرُّمًا مِن مُقامِهِ بَينَ الدمِ والأحشاءِ و اللحمِ و العظمِ ، كل هذا و هو يُشاطِرهُ المَاءَ و الهواءَ و الغِذاءَ ... و إذ به ، حين يَخرُّجُ ، جَسدٌ لامرأةٍ آيةٍ في الجَمالِ والملائكيةِ ، يُغشيها ثَوبٌ فِضفاضٌ حتى أنه كان لا يُبدي مِن مَفاتنها سُوى الوَجه و الكَفيّنَ ... و حِين نَاديتُها

أشاحَتْ بِوجهِها عني ، رّغم أنها تَوقفتْ فجأة كَمَن تقفُ مشاعره حجر عَثرة أمام ما يفرضه ضميره اليَقِظ دومًا عليه مِن إملاءات ثم ما لبثت أن استعاد ضميرها عُنفوانه الضاري و واصلت زحفها الزئبقي إلى حَيث كان لا يَصل البصر من مَدي لا يُدرَّك ، و كأنها كانت تَستشعرُ النَدمَ و الخَجلَ مِن افتضاحِ أمرِها ، و كذا الندمَ مِن فعل ما كان لا يَليقْ بها أن تأتي مِثلهُ مع أمثالي مِمَن كانوا لا يَحذوهم سَلامةُ الطَويةِ و نقاءُ السَريرةِ حتى وقتٍ قريبٍ و ذاك قَبل أن أجهرَّ بِتَوبتي و أُفوضُ الأمرَ إلى الله في كُل ما ألَّمَ و سوف يُلِمَ بي مِن نوائبِ الدَهرِ ...

فقُلتُ : لِما تَخليتِ عن جَسدٍ وَهبتِهِ بِفَضل ضِياءكِ الوَهاجِ اشراقةً و أملًا في غَدٍ جَديد ، غَدٍ لا يَشوبهُ حَزنٌ و لا ضيقٌ و يَحذوه شُعورٌ بالرضا و بأن دُنيا جديدة تَفتح أذرُعَها ، و تبدو للناظر إليها بعَين راضيةٍ مَرضية و نفسٍ مُطمَئنة لقضاء الله و لَطيف قَدَرِهِ مَوسومةً بالإنصحاء و جَلاءِ الأفاقِ ؟

قالت : لا أمكثُ إلا حيثُ الصفاءُ و نقاءُ السَريرةِ ، و لا يُرضيني أن أشبَ و اترعرعَ حَيثُ بَقيةُ عَطنٍ بالرُّوح و الجَسد ، فذاك يُصيبُني بالاختناق و لا يُرضيكَ أن أموتَ اختناقًا لِقاء حُب مَن لَّمْ تَصفو بعد سَريرتهُ و كذا ما حَولُه مِن أجواءٍ على النحو الذي يَنبغي و يُتيح لي أن أتخذَ من جَسدهِ و فؤادهِ سَكنًا ...

قُلتُ : أميرتي ! لا تفارقي جسدي و أسكني أسفل جِلدي ، فإن كان به ما يسوءكِ و تعوفه نَفسُك الرقيقة ، فانبثاث عَبيرك به و إطلالة وجهك الساطع يكفلان نقاءه و صفاءه و ضياءه على النحو الذي يحلو لك و تريدين له ان يكون عليه ...

قالتْ : لا أستطيع ... فجميعُ أركان نَفسكَ و جَنبات رُّوحك لم يَزَلنْ يَزخرن بأثار عَطَنٍ جراء مَعصيةِ الاله و ندوبٍ في الأعماق لَّمْ يَزَلن يَتبرَّمن و يتشققن غَيظًا و كَمدًا مِن آن لآخر مِن ابتلاءاتهِ سُبحانه له في سَالف الأيام ... و أنا بغير جنبات روح يفضن بالصلاح و التقوى و الهُدى لا ارتضي قط بديلا ...

و على إثر مقولتها هذه ، استشعرت و كأن أنياب الندم ينشبن في لحمي و عظامي ، فيقطر قلبي دمًا و حسرةً على ما أضعت من كلتا يدي هاتين بسوء فعلي و قبح مسلكي وعدم اتقاءي الاله في سري و علانيتي ... نعم ، أضعت أنشودة للنقاء و الصفاء كانت نظرةُ رِّضا من مُقلتها لكَفيلةً بأن تجعل مني وليًا و إمامًا و واحدًا من الصديقين ....

وَضعتُ نُصب عَيني الظَفر بفؤادها و بِتُ لا أكاد أغفو إلا و يخالجني شعور باطني بدنو ولوجها إلى داخلي المُستعِر ، لا ينهزني في ذلك سوى عَملي المُضني و جَهدي الجَهيد صَّوب تنقية نفسي و السُمو برُّوحي و الارتقاء بحواسي و جوارحي ، فيصيرُّ جَسدي سكنًا يليقُ بمقامها و عِطرها الندي ؛ مُقامها هي ، الهالة التقية

النقية الوفية ، من ظمأن مثلي يَعشمُ أن تَكونَ له في قابل الأيام زادًا وريًّا ، ويَصير كل مَن عَداها نسيًا مَنسيًا .....

صرتُ أقرضُ الشِعر لأجلها، فقُلتُ ذات ليلةٍ بعدما صَّليت ركعتين في جوف الليل و قرأت وِردي،مُخاطبا في إياها عَفوِها و كَرمِها :

غارقٌ في السُكون هَيهات أطفو ... يا لوجدٍ يَلذهُ الاستغراق !
ما الذي الآن اشتكي؟ رُبَ مَخمَصةٍ ... رَّفعتني،و للعزيزِ اغداق
خَفرٌ في العُروقِ أن تَعقِلَ الشَج ... وَ، و للشَجوِ في العُروقِ انطلاق
وَدَعَتني شَبيهةُ النَهْرِ، فاستغفر ... تُ ، و للنَهْرِ حَظوةٌ و وِثاق
الكَوى مَوكِبي لِدارِ عُلاها ... و مَثواها العُروقُ و الأحداق

و جاء الفرجُ مُتهللًا في ليلة القدر حينما غَفوتُ و استشعرتُ بذاك جسدٍ مِخملي يَنفذُ ثانيةً عَبْر الجِلد و اللحمِ إلى حيث الدم و العِظام ... جَسدٍ استشعرتُ أيما لذة و هو يَتخلل كنسيم عَليل جاء إلى وادٍ ظليل حَطت به رياحُ المُزن بَعدما أجدبته السنون العِجاف اللاتي لم يَرى خلالهن أثرًا للاخضرار بأي من جَنباته اللاتي هن الآن مِن ذوات التربة الخصبة اليافعة ... جسدٌ أعاد توجيه الدم بالشرايين و مَسراها على هذا النحو الذي يرتضي و انطلق لِيَنشُر البهجة و البِشرَ في العروق و الأوصال ....

و الحادث أنني أحسست بِأرجُلِ عَرشِها في حنايا القلب و هي تَحُط مِنه بقرارٍ مَكين ، فقلتُ مُخاطبًا إياها :

_ ما الذي ارتجيه أشهى مِن عَرشِكِ :
عَبيرٌ يَجوبَني ...
و ازديادٌ في النَفحاتِ ...
يُغلْفهُن وَعدٌ ،
يا طَالما الوَعدُ يُسَرِي ...
و مُضغةٌ في خُفوقٍ
هل تَحْسِين خُلوةَ الرُّوحِ بالرُّوحِ ...
قالت و رنين صوتها العذب يعزفُ في كلتا أُذني أعذبَ ألحان الصفاء و النقاء و الأريحية ، و كأنها كانت صَّدى صَّوتٍ لِما كُنتُ سوف أُرتله مِن أبياتٍ :
_ في واحةِ النَبضِ
و حِلْيةٍ
مَوسُومةٍ بالشُروقِ ...
أنتَ عَلمٌ مُقابِلٌ لارتفاعِ الحُلمِ
في هالةٍ مِن النُورِ ،
تَزدادُ اغترافًا
و عِطرُها الناسمُ المَرِحُ
يُعافي ...
مِن الفَراديسِ لَيسَ بظمآن
و يَنهلُّ ...
مِن أمانٍ وَثيق !

عَبثٌ يَستهويكَ شَرٌ...
أو يُغريكَ عِصيانٌ
فأنتَ شَجرةُ الإباءِ
تَشكَلتَ مِن عَناصرهِ الغَراءِ

و هكذا حَلَتْ الدنيا بتوبةٍ أبدعتُ في استكمال مَعانيها و ظفرتُ بِفَضلِها بِمَن في جَلوةِ اللَّظى و الحَريق تدفعني إلى التَحلي بالصَّبرِ و ألا بالأيامِ أضيق ، أميرة اسمها و وَصْفُها الدقيق ، و وَاعيها أنا ، مُحمد ، المَغشيُ عليه في سبيل حُبها دونما أدنى رَّغبةٍ في أن يَفيق ...

و الآن يا سماء ، هلا أتممتِ عَلي النعماء و رَويتي مني الرِّيق ، و أجلَيتِها أمامي جسدًا أُبصِره فأرى بعين اليقين ما له من ضياء و بَريق ، أعلمُ جيدًا بأنني قد أَكونُ بمَطلبي ذاك صفيق ، غير أن ذاك دومًا دأبُ العَشيقِ : إن عاشَ حُلمًا ، لا يُريدُ أن يَفيق ، و إن صحا مِنه ، أرادَ له أن يَستحيلَ واقعًا ماديًا و طريق ، و إن وافته المَنيةُ ، أرادَ اصطحابهُ إلى حيث البرزخ و المضيق ، و الآن دعيني يا سماء الالهِ أُوافيك ، و بِشعرِ الرجاءِ أستجديك ، أن تترأفي بحالي الرقيق ، و تُجيبي في مودةٍ سُؤلي الصَّفيق :

_ ما الذي تُضمِرين ؟
ضُمي إليكِ السُحبَ
و استوثقي

مما ينبئ الرَّملُ ...
و قُودي إلي القضاءِ الشَفيقِ
إن مِيقاتَكِ الوشيك يُناديكِ
فلا تَقرَبيه ،
ساعةَ يأتيكِ ،
و لا تَرضَخي ...
لِقرعِ الصَّفيق
رَّحلةٌ أنتِ كَمَن مُطاهُ لَيلٌ
عَبثٌ تَستقرين !
لا أنتِ مَوفورةُ الكَشفِ
و لا في المُحاق هَدي ،
و لا الغَيمةُ تُوحي ...
و لا الظلامُ يُفاديك
فتُبصرين ....
في النُهير الدَفوق
فوقَ شَمسٍ سَكنتِ
هذا هو المأوى
فكوني معي ، و كُوني مُرشدي
مِثلما تَفعلُ النجومُ في الليلِ .

نصف ساعة

" سيداتي ، أنظرن إلى تلك الواقفة ، إلى بِنت في الخطأ مُسرفه . رُّغم صِغَرِها و ضَآلة المَعرفة ، تقول الزور و المظلوم تُجحفه . بالأمس طالعتُ كَذبًا و بُهتانًا يُوصَّفا ، ما لتلك شيطانةٍ مِن ادعاءات مُزيفه . فهي تتدعي الزُهدَ و التَصَّوفَ، و أنها بهما بلغتْ حقيقَ المَعرفة . أنى لها أن تَحوز مُناصفة، بينها وبين الرجل سِمات المُتصوفة . ثُمَ ما أدلتْ به مُدعيةً المَعرفة ، هي لإياه لا رَّيبَ خاطِفه . إنها أقوال سادتي و أئمة المُتصَّوِفة . أما عن جائزتها و الأوسمة المُشرِفة ، فهُن مِن حَق فَتىً نابغةٍ أعرفه . لا جرمَ أنها استمالته بأضعافٍ مُضاعفه،مِن أموال بَريقها لَّمْ يألفه . فلاذ بالخنوع و ارتضى أن يُقذفَ ، في جُب التيه و الحسرةَ يَنزِفَ . لَّمْ يشأ لحلمهِ أن يُقصفَ ،و خَرجَ عن صَمته و أتاني مُعَنِفًا .قالَ : " أنى لكُم تُكرمون مُدعيةً مُزيفةً ، سلبتني حُلمي و خَلتني و الندمَ نَتعارفا . " .... تَجنبن مُخالطتها و محاولة المُكاشفة ، فهي للشيطان غير مُصرِفه . تلميذاتي ! حَذارِ مِمَن قد تَعصفَ ، بكُل الأخلاقيات و العفاف و تَنسفَ . فتاةٌ للإثم مُتجانفه ،كاذبةٌ مُخادعةٌ و للحقِ مُسَايفة . حُكمي عليها أن تَظلَّ واقفة ، لنصف ساعة ... فلا تَكذبَ و لا تَقذِفَ . "

الدموع رُّغمًا عني زاحفة ،فأي عارٌ عليه أنا مُشرفه ! قدماي لا تَقويان و أحبسُ التأففَ، فغضبي في السماء يُلامس الأسقُفَ .

أحسستُ بخورٍ و انهاكٍ يَعصفا ، و أنني على السقوط مُدنِفه .غير أني كنت بالأمس حالفة،ألا بغير الجَلَدِ للجُور أصرفَ .فوقفت ثابتة الجَنان مُتآلِفه ، و رفعت رأسي و أنا عن الدموع عازفة . فالصَّبْر على الجور و لو كان جارفا ، سِمةُ من كان زاهدًا مُتصوفا .

وحين انتهى عِقابي المُجحِفا، دَقَّ الجرسُ دقةً للعذاب كاشفة . الجميعُ لم ينبسن ببنت شفه ، و لحالي الرقيق لم يبدين تَعاطفَ . أين ذهبت تلك النظرات الجارفة ،المفعمة بحب لم يعوزه التآلفا . ما عدت أجني سوى الازدراء الوارفا ، وعميقَ حُزن للوجدِ لا ينفك ناسفا . كنت على رفيعِ المنازل مُشرفة، بمجدٍ أحوزه و لأجله بي يُحتفى . ولت آمالي كُلها عني ... عازفة ،لأنشودة إبداع وَلَّى و اختفى .اسمُ " آمال " كان مُوصَّفا، بِكُل جَميلٍ وبالمَديح مُردَفا . و الآن صَّارَ غيري المُصطفى، و أنا المَوصومةُ بالعارِ و بالسفه . كُلُّ ما خُضتُ مِن دروب المُتصوفة ، هي الآن على المَحَكِ مُترفعةٌ مُتحالفة . تنأى بي عن كُل زَلةٍ غير مُشَرِفة، تَرمي بي في غُربةٍ و إسارِ يَقصفا.

دَنَتْ رُفيدة المُفعمةُ بالوفا ، بوجهٍ غضٍ يَنطقُ بالصفا . خَرجتْ عن حِجاب الصَمتِ كَمَن اصطفى ، لنفسهِ الشهادةَ بِيدِ مَن لا يَدري تَرأفَ . ضَمتني إلى صدرها مُردِفه ، لأوقَع كلمات للأذان مُشَنِفة :

_ ما بك ؟ أتُذعنين و تُخلين ذاك المُجحِفا ، بفؤادٍ النشوةُ مِن حَولهِ مُتطوِفة ؟

_ ماذا ؟ أهناك شيء لا أعرفه ؟ هلا تُرشدين ؟ فالرُشدُ عني وَلَّى واختفى.

فما كادت أن تبدأ بالمُكاشفة، حتى أتى صوتٌ للوجدِ خَاطفا . كان صَّوتُ مُعلمتي المُنصفة ، " رَّهفُ " اسمها وكذا الصفة . قالت و هي حَزينةٌ آسفة :

_ أنى لكِ لا تعلمين الحقيقة المؤسفة ؟

فانتفضت جوارحي و حسي المرهفا ، و استشعرت خيرًا آت و للإجحاف مُصرِفا .

_ إنه ذاك العساف المُوصِّفا ، بالسلبِ لِمَن يُجيدُ و المُحرِفا . هذا دأبه و ما يألفه ، للجميلِ و العظيمِ يُحقرُّ خاسفا . مَن يُصغي لما يقول مِن عَته ، على وجهه انكبَ و عارهُ خُلِّفَ .

و قالت رفيدة بلهجةٍ مُعنِفة :

_ إلى ما ابتئاسك تأبين التَصرُّفا ؟

_ إنها ألامُ القَدحِ العاصِفة ، بِكُلِ لُّحمةٍ بالوجدان أليافُها مُتآلفة .

قاطعتُ معلمتي .. من تَحمل المُصحفَ ، لأستبين الحق المبين و اليقين استشرفَ :

_ هذا العساف لم يَتسنى له أن يعرفَ ، للمرأة حقيقَ قدرها و مكانتها المُشرَّفة . يراها مخلوق أدنى مُسرِفا ، في الخطأ والخطيئة و لا يَملك مَعرفة . فكلما رأى لها صُّعودًا مُشرِفا ، تَميزَ مِن الغيظ و رُشدهُ انتفى . أنت و نحن الدليل على جفا ،عقل و فؤاد رجلٍ عن الركب تخلفا. لكننا ماضيات الى أن نُنصفَ،أملٌ إليه صُّدورنا

تَتوقُ مُتلهفة .

فكففتُ عن النحيب و ما يُضعفُ ، و قلت ما للحق المبين يجرفُ . كأني لفتحٍ قريب استشرفُ ، و انزاح عن أفقي الحجابُ و راحَ يَتكشَفُ .

- ما الضيرُّ إن كَرهكِ العالمُ و أسرفَ ، في وصفكِ بالشرِ و للخير فيكِ نفى ؟! فما دام ضَميرُ المرءِ لم يَكُ مُتجانفا ، لإثمٍ يُزريه و يلوث صحائفه . فعُلو قَدرهِ و سِيرتهُ المُشَرِفة ، قَدرهُ المحتوم الذى يَلقفه . فقَدْرُ المَرءِ عَمله و تَصرفه ، و عِند الشدائدِ لا تَراه مُتأفِفا .

وعلى حين غرة أتانا عاصفا ، صَّوتٌ كان للدمع مُستنزِفا . صَّوتُ تَصفيقٍ كُنتُ أعرفه ، كأنه للكُربةِ جاء كاشفا . فإذ به لعسافٍ الذي كان قُدْ تَوقفَ ، يُتابع من حُوارِنا ما اللسان أسلفَ. راحَ يقول بنبرة خَجلةٍ مُستعطِفه ، و بعرفانٍ بالجميلِ و هو للأدمعِ نازفا :

_ ما سمعت من عقل ترأف ، لمس عندي قاعًا كان صفصفا . يعرف للجدل أصوله و لم يك مُتصلفا ، فصار وجداني ظلالًا وارفة . تالله ما قُلتُ ما به كُنتُ مُوصِّفا،إلا لاستبين ما الحقُ وما المُسرِفا . فمَبتورُ العقلِ و كذا مُخَرِفا ، كل من لقَدْر المرأةِ نَفى . الآن حَصحصَ الحقُ و تَكشفَ ، و ما عاد بالقلبِ ظلامٌ يَجرفه . فالمرأةُ مُساويةٌ للرجل و ليست بالمُتخلفة ، عنه فيما يَملكه مِن عَقلٍ و مَعرفة . بَلْ إنها تَفوقه بأحاسيسها المُرهفة ، و ذاك يجعلُ

منها خِيرةَ المُتصوفة .

جَاء قَولهُ شُعاعًا كاشفا ، لشمس الحقيقة و للجَهالةِ مُصرّفا . ثَبُتَ نُبلُ قَصدِه و سُلوكهِ فيما أسلفَ ، و صَّرفنا عنهما بما كان يُظهرُ مِن جَفا . حِينها شَعرتُ بجناحين لي يُرفرفا ، و جُبتُ و زميلاتي فضاءاتٍ مُشرِفة . و صرنا و عسافُ نغترفُ المَعرفة ، كلانا للحقِ و نور اليقين يَرنو مُتلَهِفا . فلا يَعلو شأن أمة و يشرُّفَ ، مِن غيركلتا ساعديها و هُما تتآلفا . حينها سَبيلَ الحضارة تَعرفه، و أبدًا لسبيل الشيطانٍ لا تُصرَّفَ .

سَبيلُ الحق .... جَدولُ الخيرات

ذات مرة مِن المرات ،مَررتُ ببلدةٍ عامرةٍ بالزاد . كان الظمأُ مِني يكاد ، يَنْل مِن روحي و يُنزِلُ النَقمات . فرأيتُ جدولًا بالماء فياض ، من وراءه تتلألأُ بالفاكهة شجيرات . كان كجنةٍ على الأراض ، يَجري من تحتها نهرٌ فُرات .فطَعمتُ و سُقيتُ المياه قطرات ،كأنها مِن ماء زمزم مُسداة . و حين استقام البدنُ و جاست النظرات ، بَصرتُ كلماتٍ تَفيض بالعِظات . "جَدولُ الخيرات " خَطته أياد ، تعلم لما هكذا كانت المُسميات . فسألتُ شيخًا واقفًا يَقتات ، عن ذلك مُسمى غير مُعتاد . فأجاب و يقطع اجابته سعلات ، و أنا أسمعه بِوجدٍ مُنقاد . قال :

لِكُل حَدثٍ بدايات ، و أول قِصتنا بَيتٌ لصَّياد . هو ذاك الواقفُ في ثَبات ، رُغم مُضي الأهوال العاصفات .كان اسمه عبد الحق الصياد،و زوجته تغزلُ النولَ و اسمُها آيات . لم يُرزقا بإنجاب الأولاد ، فلم يقنطا أبدًا من الحياة . و جاء يومٌ مَرَّ بِرجُلٍ جَواد ، يبيع الفاكهة بثمنٍ غير مُعتاد . كان نصف الثمن أو يكاد ، فارتاء لعبد الحق شراء بعض الثمرات . فَكالَّ له البائعُ الثمرات ، و أخذ له مِنهُن يَزداد . فَفرِحَ عبد الحق فرحةً تكاد ، تذهبُ باللبِ و تُخطئُ الصِّراط . و سار يَمُدُ الخُطى في تَواد ، فلم يَطعما التُفاح مُذ سنوات . و حينما طَعِما و زوجته الثمرات ، جاءهما بالمَعدةِ ألمٌ حَاد . فذهبَ بِشكايةٍ إلى القَاض ، في إحدى أيام الآحاد ....

و جِيءَ ببائعِ الفاكهة عبد الجواد ، و وجهه يَكسوه اطمئنانٌ و ثَبات . مَثُلَ أمام القاضي في رِباط ،لا يعتريه خوفٌ أو بالنفسِ احتداد . كان يَظن نَفسهُ مِن الأشهاد ،فإذ به تُكال ازاءه الاتهامات .أَخطَرَّ القاضي بِعزمٍ باتْ ،أن سِلعته مِن السِلع الثقاة . و أنه أبدًا لم تأتي بحقها شكايات،فهو مِن الرِّزقِ لا يَبيعُ سُوى الطيبات . و أبدًا لم تأت مُرتاديه أمراض، و يَشهدُ بذاك آكلو ثماره اليانعات . فوجه القاضي السؤال و أعاد :

- لما بنصف ثمنها ابتاعها الشُراة ؟!

فأجابَ في تؤدةٍ و ثبات :

- ذاك نصيب ثماري من الزكاة . فأنا أؤدي للزروع زكاة ،كما قَضتْ بذاك العِبادات . و هذا العام نَسيتُ مِيقات ، خُروجها و تأديتها في الميعاد . كانت جَمةً وضاغطةً الأزمات،تُلهي و تُسقطُ مِن العقل الحسابات . فأردتُ أن أُخرِجها للعِباد ، في صورة ثمراتٍ يانعات . و حددتُ المبلغ على فترات ، و بدأتُ مِن أمس الهِبات . ذاك ما أشارَ به شيوخٌ ثُقاة ، راءوني في حُكم المُكْره مِن العِباد .

فَنظرَ إلى عبد الحق القاض، راغبًا لِما في مَكنونه الاستنباط . قال : هو في دِفاعهِ أجاد ،غير أنكَ بالقصاصِ لي مُناط . لا أعرفُ في الباطل تَماد ، و الحقُ دأبي مُذ الميلاد . أُصِرُّ على أخذهِ في عِناد ، لئلا يَبيعَ أحدٌ ثِماره الفاسدات . و لا يعود لفعل تلك فعلات ، و كذا الصاقها بفرض الزكاة . فما أبشعَ أن يتزكى عِباد ، بأردئ ما

لديهم مِن ثمرات ! فأنى لهم الزَجُ بِثمارٍ مَعطوبات ،يَسقُطن قَبل الفيه في يدِ الجَواد .

و حين أبدى القاضي استعداد ، لِرَّد ثَمَن الثِمار المعطوبات . رفضَ الاثنان في عِزةٍ و اعتراض ، فكلاهُما على الحقِ و الحقَ أراد . فأحدهما لا يُريدَ اصلاح فِعلات ،لم يأتِها... و يَحذوه إيمانٌ بات . و أما الآخر فلا يَقبلَّ بمبدأ الاستيعاض ، فهو عن طريق الحق لا يحاد . فأنظرهما إلى غدٍ القاض ، ليرى ما هو قاطعٌ و بات .

و إلى البيتِ عبد الحق عَاد ، و في بَطنِهِ الألمُ يَزداد . كان ألمُ الارتياب لا الاقتيات ، بالأمس على ثِمار فاسدات . و جاءت إلى أُذنيه آهات ، تَوجع زَوجتِه و مَرارةُ الأنين تَزداد . فَهرعَ إليها مُوسعاً الخُطوات ، فوجدَ شُحوب وَجهِها بازدياد، قال :

ما بك يا آيات ؟

قالتْ و هي يَتصاعدُ مِنها ألمٌ باحتداد :أجحفتَ خِيرة الرجالات .

فأردفَ قائلًا في مُعاناة :

أنى لك قولُ هذه التُرهات ؟ ما تناولنا غير تلك ثمرات ، و هي لا ريبَ سَببُ التَوعُك و الاجهاد .

- قاطعتْ و هي تتأوه مِن طُول الرُقاد :

أنا مَن أفسدتُ تلك ثمرات .كان غَسلهُن بِماءٍ غير فرات،غير طَهورٍ و مَرتعٌ للحَشرات . نَسيَّ الساقي احضار الجَرات ، جَرات ماءنا كما كان مُعتاد .. لم تكن جِرارُنا بالماءِ مُمتلئات

، سُوى بالقَدْر الذى يَكفي للتوضأ للصلاة .. و جَرةٌ تَروي ظمأنا المُعتاد ، بِليالٍ قَيظِنا عِند الاشتداد .. و تحت وطأة جُوعنا المُتماد ، غَسلتُ في الماء الآسن الثمرات .. ماءِ الجَدول ذي الآفات ، و ظَّننتُ أنها بالإمكان أن تُباد .. و عند التَجفيف بأشياءٍ نظيفات ، تَذهبُ عَنها الرَّوائح الكَريهات .. هذا ما كُنتُ له مِن المُردِدات ، و زَجرتُ به هَواجسي الهامات . و حين أدلَّتْ بِعظيم الشِهادات ، كسا وجهه شُحوب تَلاه إبهات . و رَّاحَ يَقول :

يا لِهَولِ ما أسمعُ مِن عِبارات ،وَقعُها على جِلدي كوقْع السِياط !

لِما لَمْ تُدلي بتلك اعترافات ، قَبل في ذاك أمرٍ الانخراط ؟!

جعلتني أرمي بِمُقذَع الاتهامات ، رَّجلًا ما بَغى سوى فِعلَ الخَيرات .

_ تبـاً للوجع و الآهات ، يَجعلا للعقلِ بالصَّحو سَكرات !

فليُسامِحني القديرُ على ذلات ، ما قَصدتُ على أحد الإفتئات .

و جاءت المُحاكمةُ على رؤوس الأشهاد ، بين خِصمين في صَّلابة الأوتاد . أعادَ عبد الحق ما قالته آيات ، على مَسامِع حَضرة القاض . فاضت مِن أعيُّن البائع العَبْرات ، لَّما رأى صُّنع الجليل و الآيات . عادَ إليه رَّفيعُ الدرجات ، و استحق عن جَدارةٍ لشرفِهِ الاستيعاد . كان الجميعُ في حالة انصات ، لِما كان سَيُدلي به القاض .

قال في أيما رُّسوخٍ و ثبات :

حُكم البراءة بحقكما بات،مَوقوفاً و مَرهوناً ببعض الاشتراطات.

أولهُما أن يُؤدي عبد الحق كَفارات ، رَّميه بالغُبنِ و الغِش عبد الجواد . فتلك تُهمة كان من شأنها كَسادْ ، و بَوار التجارة و تلويث السُمعات . و أما المَشكو في حَقهِ عبد الجواد ، مَن جَرَّ على نَفسهِ الاتهامات . فَبيعُ السِلعة بِثمنٍ غَير مُعتاد ، لِظنِ السُوءِ مِن الموجبات . ناهيكُم عن اضطراب بالحياة ، بَعد الوفاء بِمَبلغ الزكاة . فَيضيقُ الناسُ و يَضلوا الصِراط، بَعدما يَتضاعفُ السِعرُ مَرات . فَيُعَودهُم ما يَحدثُ مِن تَقلُّبات ، على الشراءِ إبان فترات . فلا يَنلْ التاجرُ سُوى كساد ، ما للبيعِ و الشراءِ من مَوجات . و لِكُل ما أسلفتُ مِن بَيِّنات ، أدعوكَ عبد الجواد لِما هو آت . أنفِق ما تَبقى مِن الزكاة ، على ازاحة ما بالجدول من آفات . ذاك الجدول الذي يَعِجُ بالحشرات ، و الذى غُسلَتْ بِمياهه ثِمارك اليانعات . فذاك أدنى ألا تَعتاد ، أن تُقام بِحقكَ هكذا شِكايات . فما فُرِّضَتْ بالأساس الزكاة ، إلا لِنفعِ مُؤديها و كذا العباد .

فَقَبِلَ عن قناعةٍ عبد الجواد،و أقرَّ للقاضي برؤاهِ الثاقبات. وظَّلَّ على دأبه إلى المَمات ،يُنفقُ الزكاة على جَدول الخيرات . و أما عبد الحق و آيات ، فقد أديا ما لِبدنيهما مِن زكاة . بأن ظَّلا يَزرعان شُجيرات ، بِربوع الجدول لِتمتلئ بالخيرات . كان ثلاثتهم بالإحسان فَياض ، و ازدادوا مِن فِعل الخيرات . و حينما وافتهُم المَنيةُ في الميعاد ، شَيعهُم أهلُ البَلدة بالدعاءِ بِالمغفرةِ و بِالرحمات . فقد خَلفوا لِمَن بَعدِهم آيات ، لِيَستبين أُناسٌ سَبيلَ الحَق و تُنَزَلُّ الرَّحمات .

نجاة عزيز في الممر

كان للصيف بالليل موجات ، يحلو معها التجوال والأمسيات . فرأيت أن بعد الاقتيات،أتريض بالخارج سويعات . كان ذاك انعاشًا للأجساد ، بعد قطفها الثمار البرية الناضجات . كان المشهد مُفعماً بآيات ، الجمال و الفتنة و نَضارةٍ لا تُباد . شاهدتُ الشمسَ آفلةً بارتداد ، إلى حيث الكمون .. و القمر آت . فَسِرتُ في ضَّيه المُوات ، في مَمْرٍ يَعجُ بالالتواءات .

كنت أراني و هو على ميعاد ، ففيه أردت بنفسي الانفراد . تواريت فيه عن الآحاد ، فما عاد لي غريم و لا مستحل للعورات . لم تطل سعادتي بحريتي لحظات ، و ترددت من قدمي الخطوات . أحسست و كأن أمر يعاد ، و يردني الى زمن الشتات . لم يك صوت حفيف الشجيرات ، بل رائحة تعصف بالذات . كانت رائحة سيجار" مات "، أحد من عذبوني بالسياط . رأيته عن بعد لا يكاد ، يخطو خطوة حتى يعاود الاسقاط . كانت الذكريات الي تعاد ، كأنها لم تمضي و تولي السنوات . كان يسيل منه الدم قطرات ، ففكرت قائلة : الثأر موات . وبعد ما سقط مرات و مرات ،أخذ يزحف على العشب و النبات . و استقرت عند قدمه حشرات ، أخذن على دمه الاقتيات . فما كان منه سوى الانقياد ، و تَفحُصُّ ما كُن يَفعلن في ثبات . كان ساكناً سُكون الجَماد ، كأني به قد فارق الحياة . ظللتُ مُتواريةً و الدمُ في احتداد ،أريدُ الثأرَّ و أستحي

الانقضاض. كان التَسلُّلُ للخروج اعتياد ،للجُبنِ و عارٌ إلى المَمات . و كان آخذُ الثأرِ به مُناط،لَّوم نفسي و لِنَخوتي الانقراض .كان يَلقى مَصير العُصاة ، و كان يعتصرني صراعٌ و مُعاناة . و حينما حسمتُ أمري و الضلالات ، و كنتُ لِظِلهِ المُمتد مِن العابرات . قال في هُدوءٍ دون التفات :

- أفبهذا يأمرُكُم دِينكُم يا نَجاة ؟!

فقَدِمتُ إليه تَنهزُني التساؤلات،و انعقد لساني و ماجت الذكريات . كان حَرِجاً مَوقفي و غيرَ مُعتاد ، و آلَّ العزمُ مِني إلى الانحطاط . فلما رَّأني قَلِقَةَ القَسمات ، قال :

- أعلمُ ما بداخلك مِن نِزاعات .

- و ما عِلمُكَ بِلياليٍ نَحِسات ، قَضينهن ضَّحاياكَ ... و ضَّحاياك بالمئات ؟!

و حين سَمعَني أروي تلك ذكريات ، انتابت جَسدهُ حالةٌ مِن الانتفاض . فهرعتُ إليه و غَلبتني للعفو عِظات ، بالصفح عَن ضالٍ لِيهتاد . حينها تَبيَّنتُ أنه للسوء أرَّاد ، مَن أسرٍ و فُحشٍ و انتهاك للحُرُّمات . و حين احكمَ حَولي أصابعهُ الغليظات،وكزتهُ بِكِلتا قَدَمي فَارتدَ خُطوات . فلما عاودَ الكَرَّةَ مُحتاط ،أخرجتُ مِنجَلي و غرزتهُ دونما احتياط . كان لا يُفارقني المِنجَلُ لحظات ، كُنتُ استشعرُ مِنه للحقِ الاستيعاد . ها هو جَريحاً ينزفُ حَسرات ، على حياةٍ مَليئة بِالسَقطات . يُعيدُ إلي عِزتي و يُقلدُني أنواط ، الشَرفِ و الواجبِ و أرفعَ الدرجات . كانت جَياشةً مِني الرغبات ،

في الاجهـاز و اكتيـال الطَّـعنات . كـان مِنجَلـي مُخضبـاً بغيـر الطاهرات، مِن قطرات دمِه وكذا الكُرات .

و كان صَّوتٌ مِن بَعيد يُناد :

- أرجعي .. أرجعي يا نجاة ! ما هكذا لَّقنتُك و رَّتلتُ عليكَ الآيات ، أين العَفو و حِلمُ المؤمنات ؟!

كان على وَجهـهِ الاحتضـارُ بـاد ، و كـذا بالصـفح مِـني الاسـتنجاد . و شيءٌ غَـريبٌ دَعـاني لإغمـاد ، مِنجَلي حيث مأواه المُعتاد . عاونته علـى النهـوض بعـد الإسـقاط ، و كـان يَـنظرُ و عَـيناهُ تَـفيضان بالعِبرات . و في الطريق أرادَ لحظات ، يَنطِقُ فيها بآخر الكَلمات :

- أنى لي وَصفكُن بالكلمات ، أيتها الفَتيات و النِساء العربيات ؟! أياديكُن قويةٌ في غَرس النبات، و عِند تَوجيه الطَّعنات و الإغماد . و رَّحيمـةٌ أنـا ملكُـن بِمُحتَـلٍ و جَـلَّاد ، أراد بِكُـن السُـوءَ و انتهـاكَ الآراض . حـين تَـرون الجـريحَ قُـلوبكُن تَـنقاد ، لِـرَّجعِ صَّـوتٍ للصفح أراد . فيا ليتَكِ تُلقنيني كلمات ، يُغفـرُّ بِهِـن لأمثالي مِن العُصاة !

- أشهَـد خَيرَّ الشـهادات ، بأن الاله واحدًا رحيمًا و جَّوَاد . سَـاقكَ إلى هُـنا بفضلهِ المُوات ، لِـتنال خَـيرَّ عُـقبى و نِعـمَ المَمات . فنَـطقَ بِـالشهادةِ و فـارقَ الحَـياة ، و أديـتُ لأجلـهِ أخـر الصـلوات . كـان وجههُ يَكسـوه بَياض ، يَفوق بَياض وجههِ المُعتاد . إنه بَياضُ التُقى و صِّـدق التَـوبات ، نـالَ بهمـا رفيـعَ و عظـيمَ الـدرجات . قبرهُ كان

رَّوضةً مِن الرياض ، و تَذكرةً لَمَنْ عن الصِّراط حاد . حين وارى الثرى انبعثت ضِّياءات ، و المَمرُّ اخضرٌ ناد بَعد الرُّقاد . زاد جمالًا على جَمالهِ المُعتاد ، كأنه بِنجاة عَزيزٍ في سُعاد .

رَّحمةُ الله العزيز الجواد ، على عزيز أبي .. خِيرة الرِجالات ! عَلَّمني لِدروب الحق الارتياد ، و أن العَفوَ دَربُ الخَيرات .

طاقة نور

في مُستَهل عَتمة الليل ، امتطى السيد " راجي " جَواده الابيض الجامح و ذهبَ إلى حيث لم يَعُد بصري يمتد ليُدرك ما كان حَوله و يتوسطه هو و حصانه كنقطةٍ مُضيئة في جوف أجمة متشابكة الفروع و الأغصان . الغريب في الأمر أن تلك كانت هي المرة الأولى التي أراه فيها يَمتطي جَواده في ذاك الوقت ، حيث تخلو الطُرقات مِن المارة و الضبابُ يَكاد يُلامِس الأرض .... و في اليوم التالي ، كنت مُنشغلًا بأداء بعض الأعمال اللاتي استأثرت بكل تفكيري ، لدرجة انني لم أشعر معها أن الشمس أوشكتْ على المَغيب ، و ارتاء لي أن أذهب لأطمئن على السيد " راجي " بعد الحال الذي رأيته عليه ليلة البارحة في رؤياي و كانت هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها على هذه الحالة المثيرة للفضول و التساؤل .

و حينما طَّرقتُ الباب للمرة الأولى ، لم أسمع خَطو أية أقدام تَتجه صوب الباب ، فعاودتُ الطرق مرات و مرات ، لكن بلا فائدة تُجنى ... فاستيقنتُ حينها أنه لم يكن موجودا بالداخل ، و الغريب أن هذا الشعور كان موجودًا لدي بالفعل مُسبقاً ؛ فأنا طِيلة مدة بقائي بالشرفة المقابلة لمنزله لم يسترعي انتباهي صهيل حصانه الجامح و هو يَركُض عائدًا به إلى المنزل كما كان يَحدُث دائمًا ابان الأشهر القليلة الماضية و تحديدًا

في ذات التوقيت الذي عَرجتُ فيه إلى بَيتهِ . و لم يكن لدي ما أفعله ازاء هذا الأمر المُريب و المُحير في آنٍ واحد إلا أن أنتظر إلى أن يجئ صباح اليوم التالي . فقد كنت أتوجس خيفة من أن أسلك نفس الطريق الذي سلك إياه في رؤياي و في مثل ذاك الظلام الذي كان يَصير شيئاً فشيئاً دامساً و مُخيفاً بعض الشيء . كما أنني لم أكن أعلم بعد وجهة جاري العزيز عبر ذاك الطريق الذي كان يخشى أحدٌ أن يَخطو عَبره و لو خطوة واحدة لِما كان يُشاع عنه مِن أقاويل و مِن ذاك أنه شديد الوعورة و كثير الانحدارات و احيانًا ما تأتي منه أصواتُ عُواء ذِئاب أو زئير أسود و ما إلى غير ذلك مِن أقاويل أعمل فيها العقل أدواتهِ و لم يهتدي إلى شيءٍ على الاطلاق .

و كان هناك إلى جانب حالة الخوف الشديد التي كانت تنتابني ، شك يُخامرُني و يُحدثني دوماً بأن السيد " راجي " لم يَمتط ذاك الحصان اعتباطاً أو أنه لم يَكُن بَعد يَعرف الوجهة التي سوف يُقِلهُ حصانه الجامح إليها ؛ و الحادث أنني لم أكُن أعلم بَعد مصدر هذا الإحساس و مَدى مَعقوليته و اتفاقه مع منطق الواقع المُحيط مِن حَولِنا ، لكن هذا ما كنت أشعر به و ما كان يُساورني الشَكُ بشأنه . و ربما كان مَرد هذا الأمر إلى البحث الذى كنتُ أقوم بكتابته بشأن عالم الأرواح و رمزية الأشياء و الأحداث و المخلوقات اللاتي نقابلها في حياتنا اليومية و أثر ذلك كُله في تفسير ما نَمُرُّ به من أحداث و حوادث في داخلنا

و نَحنُ نيام و نَخوض غِمار حُلم أو رؤية في عوالم لا نَنتمي لها و لا تَنتمي لَنا ، أو ربما يكون مرده الى ذاك الحديث الذي كُنتُ قَدْ أجريته مَعه قَبل أيام حول التوبة و شرائط قبولها ... لا أعلم حقيقةً إلى ماذا كان يرجع ذاك الإحساس الغامض .

و حين جاء صباح اليوم التالي ، وجدني أنا على حالي جالساً على أريكتي في شُرفتي بَعد ساعات نَومٍ كان يَقطع هَناؤها و صفاؤها القَلق و الأرق من ذاك الأمر المُحير ، إذ بي أجد السيد " راجي " عائدًا يَمشي على قَدميه في شموخ دون حصانه ، فازدادت حَيرتي و أخذت تعصف بي الظُنون و الهواجس إلى أن ذهبت إليه و أنا لا أدري بأي الأشياء قد مَررتُ في الطريق و بأية العوائق اصطدمتُ ، غير أنني كُنتُ أشعرُ بألمٍ في كِلتا ساقي كان سُرعان ما تَصرفني عنه حالة الذهول و الفضول اللذان كنت عليهما و أنا في طريقي إلى هُناك .

و ما أن ولجت إلى داخل المنزل حتى فاجئني المَشهد و أنا أراه ساجدًا على الأرضية الخشبية _ و التي كانت خالية من أي شيء يكسو إياها و يَحول دون جَبهته و دون الألواح الخشبية المتراصة إلى جانب بعضها البعض و يبدو عليها الكثير من عوامل التعرية و ما كان مِن شأنهِ أن يُلحق بِجبهته الغضة أعظم الضرر مِن غير سَحجة مُدميه كأنها لإسفين خشبي راح يُمَزِع في جَبهته يميناً و يسارًا _ و يُتمتمُ بكلمات لم استيقن مِنها سُوى كَلمتين كانتا

هُما " الحمد لله " .. لم يَكُن الوقتُ وقت صلاة ؛ كما أن السيد " راجي " نفسه لم يَكُن مِن المُحافظين على الصَّلاة في أوقاتها في جماعة أو حتى مُنفردًا . و حين فَرغَ مِن سَجدِته و لم يُسَلِّم أيقنتُ أنها لم تَكُن إلا سَجدةَ شُكرٍ لله عَز و جَّل ، و لكن على ماذا ؟ ذاك كان السؤالُ الذي طَرحته عليه و بادرني هو بالإجابة قائلًا :

- راشد ، جاري العزيز ، قَبل أن أُجيبك ، دعني اسألك أولًا سؤالًا مُلحًا على ذهني و خاطري في تلك اللحظة التي أحادثك فيها إلان :

_ على الرحب و السعة .... سَلْ ما شئت !

_ حَسنًا ! هَلا تَفحصتني و أخبرتني إذا ما كانت لدي بَعد تلك نظرة مُستهزئة و غير عابئة بأي شيء ؟ هل ما زالت تَكسو وجهي تلك الجهامة و العُبوس اللذان لاحظتَهما علي و شكوتَ لي مَن وطأتهما الشديدة على نَفسك قَبل يومين مِن حديثنا هذا ؟

- الحقيقة لا ، و كأني بك تَبدَلتَ شخصًا غير الشخص و الذي إن كان بَعده يَحمل ذات الملامح للشخص الذي خَبِرته على مَدى سنوات طُوال و لكنه ليس بِحاملٍ لذات الصِّفات و الخِلال ، فَقَدْ صِرتَ أكثر دماثة و صارت ملامحك أكثر تسامحًا و هدوءً و اشراقًا و ضَلَّ عنك صَّلفُك و عِنادُك القديم .

- حقيقة الأمر أنني بِتُ ليلتي بالأمسِ و أول أمس في صَّحراءٍ جَرداء لا زرع فيها و لا ماء تَقعُ على أطراف قريتنا الصغيرة هذه و بالتحديد في نهاية ذاك الطريق المهجور الذي اعتادت أن

أطرقه على مدى شهور طويلة و لم يحدث لي و لو مرة واحدة أن أكملتُ المَسير فيه إلى نهايته مِن فرط ما كان وعرًا و شديد الانحدار و مَحفوفاً بالأهوال و المَخاطر في كل بُقعةٍ به .

- و ما الذي دَعاكَ إلى فِعلِ ذاك أمرٍ جُنوني ؟

- جاءني هاتفاً في أذني و أنا مُطيل بالسُجود و أدعو الإله أن يغفر لي و يَتقَبَلْ مِني تَوبتي عما فَعلتُ عن جهالة في سَالفِ الأيام و أن يُضيء لي الطريق بأن يَكشفَ إذا ما كان قد قَبِلَ تَوبتي و تَقبَلني فيما بين عباده الذين شَملهم برحمتهِ و مَغفرته الواسعتين أم لا ...

- ما أغربُ ما أسمع ! أهو دَربٌ مِن دُروب الخيال أم أنك اعترتك جُنه مِن كثرة ما كنتَ تَهيم على وجهكَ ذهاباً و اياباً في أنحاء القرية حتى ظَّنَ الناس بك الجنون جزاءً وفاقاً على ما قَدمَتْ يَداك في الأيامِ الخالية مِن مَعاصٍ و ذنوبٍ يَشيبُ لها الوِلدان .

- لا ، و الله ، بل إنها الحقيقة كاملة و لم انتقص مِنها و لو ما مقداره خَردلة ، و تماماً كما حدثت معي . فحين لَّبيتُ النِداء ، هَرعتُ إلى باب المنزل فإذ بي أجدُ حصاني مُعدًا و جاهزًا لامتطائهِ و صَّدِقني حينما أقول لك أنه لا عِلم لي إلى الآن كيف أفلتَ من مَربضهِ و لا أنى صار ذاك السرج الفضي يَعتليه على تلك الوضعية المُغايرة تماماً لتلك التي كنت أعمُدُ إليها حينما كُنتُ أضعُ فَوقهِ إحدى السروج لأمتطي إياه ،

فما كان مِني إلا أن صَّرفتُ ذهني عن الاستغراق في مثل هذه الاشياء اللاتي لم تَكُن تَخلو مِن إعجاز ، خاصة أنه لم يَكُن قد سَبقَ لي رؤية هذا السرج الفضي مِن قَبل ضِمن ما كُنتُ أحوزه بالفعل من أسرجه ...

- أكمل ، فأنا كلي آذان صاغية .

- حَسناً ، و حين امتطيت صهوته ، انطلق بي هذه المرة و كأنه الريح العاصفة و الغريب أنني لم أشعر طِيلة الطريق بأدنى خوف ينتابني مِن امكانية الوقوع مِن فوق صهوته رغم رَكضه الخَباب المُسابق لِعَزف الريح في أذني ؛ و إذ بي حين وصلتُ إلى أطراف تلك الصحراء أُبصر مِن الوحوش و الأفاعي و الهوام ما لم تَرى عَين و ما لم تَسمع أذناي به مِن قَبل ... كُنتُ قد نَزلتُ عن صهوة جَوادي فِعلياً و تَقدمتُ بضعة خطوات في تلك البقعة المُرعبة و حينما التفتُ إلى الخَلف وَجدته في ظهري مباشرة رغم أنني لم أطلبه ، فعاودت امتطاءه مَرة أخرى و انطلق بي وسط كل هذه الاهوال و لم يَطالني أو يَطاله أي سوء من هذه الأهوال . و بَعد ذلك بقليل ، نظرتُ خلفي فلم أرى لتلك الوحوش والهوام و الأفاعي وجودًا و كأنها صارت هباءً منثورًا و حين التفتُ مرةً آخرى لأنظر إلى ما كان يَقتادني إليه حصاني الجامح مِن أمكنة ، أبصرتُ أننا كُنا ، أنا و هو ، قِبَل سِياج ضخم تَحوم مِن حَوله غرابيبُ سُود .

كان قوام ذاك السياج جيف تلك الوحوش والأفاعي و الهوام

و تفوح مِنهن رائحة لا يقوى على تحملها إنس ولا جان ... و إذ بحصاني أمام هذا المشهد المَهيب يخرج من كلتا جنبيه جناحان و يطير صوب الأعلى و يجتاز السياج المَقيت و يهبط على أرض اللون الأخضر الزاه يَنطق و يشدو مُغردًا في كل جنباتها و ريح النسيم العليل يتغلغل في حنايا الصدر و ثنايا الجسد فيُكسبهن زينة و مَلاحة و فُتوه . الغريب في الأمر أنه حينما نظرتُ خلفي لأعلم إلى أين ذهبت تلك الريح النتنة التي كنت أشتمها مِن قَبل فإنني لم أجد لها مَوردًا ، فقد صار السياج رميمًا ، ينأى بعيدًا و بعيدًا كُلما مَسته تلك الريح التي في مواجهتي .

و الحال أنني كان قد مَسني التعب من تلك المَسافة الشاقة و التي استغرَقَتْ مِني ما مِقداره يوماً كاملًا ، فارتاء لي أن أتقدم و أخلد إلى النَوم مُمددًا جسدي المُنهك على هذه البقعة الخضراء المُباركة و التي كُنتُ كُلما تَقلبتُ و تَمرغتُ على أرضِها و أفتحُ عَيني لأرى إن كان يَقيناً ما أحياهُ و أنعمُ بالشعور به كُنتُ أجدُني لا أبصر نهايَة لها. و بعد غَفوةٍ لَّمْ أعرف لِكَم مِن الوقت استمرت، استيقظتُ مِن نَومي مُفعماً بالنشاط و الحيوية على خِلاف ما مضى مِن أيام و تَجولتُ بالنظرِ في أرجاء تلك البقعة مُحاولًا أن أجد حصاني حتى نَعود أدراجنا إلى المَنزل ها هنا . الغريب أنني لَّمْ أعثُر له على أي أثر ، فارتاء لي أن أعود أدراجي إلى البيت وحدي و بدونه ، لكن الطريق كان يبدو لعيني طويلًا و شاقاً ... غير أنني حينما امعنتُ النظر جيدًا فيما

كان يرنو لعيني من سبيل لِبُلوغ ما كُنتُ أريد و أبغي و قبل أن أخطو خطوة واحدة لأمشي فيه وجدتُ و أنا في أوج حالات الصدمة و الذهول أمام عَيني و على بُعد هنيهة منزلي الجميل يقف أمامه حصاني و قد أخذ في الاحديداب و التَكور . كان ذاك الأمر يَدعوني إلى الحيرةِ و الدهشة ؛ فمنذ متى و الخيول تأخذ هذا الشكل المحدودب أو المُتَكور في أية وضعية كانت لها . و الأغرب من هذا أن كل ما كان حول حصاني و عَاليه و سافله كان يَخلو من أية ملامح تُذكر يُشرن إلى ما كان على يمين منزلي أو يساره أو أمامه ،و ذاك خلا تلك الطاقة المضيئة التي كانت تَشعُ و تَفيضُ نورًا ، كأنه قَبساً مِن مِشكاةٍ رَّبانية عَظيمة الضياءات ، مِن ذاك الشكل المُتكور الذى كان عليه و يَتضح للناظر خلالها شيئاً فشيئاً معالم المنزل الذى أقطنه و أُريد أن أعودَ ادراجي إليه . و لما كانت الامور على هذا النحو ، عَقدتُ العزمَ على أن أنفُذَ عَبر طاقة النور هذه و التي لم يَكُن هُناك مِن ثَمة سبيل للعودة هُناك سواها . و حين نَفذتُ مِنها ، وَجدتُ نفسي مُباشرة أمام منزلي و ولجتُ إلى داخله مُسرعاً و لم أتوانى عن تلبية نداء بداخلي كان يُوجهني و يَدفعُني دَفعاً صوب أن أسجد حمدًا و شكرًا لله لأحمده سبحانه كما ينبغي لجلالِ وجههِ و عظيم سُلطانهِ على هذه الفُيوضات و النفحات الربانية. وظَّلَّلتُ على هذا النحو حتى جئت أنت و وجدتني على هذا

الحال ... فهلا أخبرتني بتأويل رؤياي التي قصصتُها عليك ؟
- إنها ذات الرؤيا التي رأيتُها لك قَبل يومٍ و ليلة و لم تجعلني أنمْ قَرير العين طِيلة ليلة البارحة ، فَقَدْ كُنتُ أتحرقُ شوقاً مِن أجل أن آتي إليكَ ها هُنا و أقُصها عليك . والحادث أنني كُنتُ مِن فرط سطوة هذه الرؤية و عصفها بي يُخيلُ إلي أنني أراكَ في صَّحوي و أنت تغادر المنزل و أنت مُمتَط صهوة جوادك الجامح نحو المجهول و اللانهائي من الفضاءات و الامكنة ... غير أنها ، و لِكي لا أُطيلُ عليك ، البُشرى بِقَبول تَوبتك و اجتباء الاله لك . فما حصانك الأبيض الجامح سوى دُعاؤك بِقبول تَوبتك و غفران الله لك ما تَقدمَ مِن ذنبكَ . ذاك الدعاء الذى تداعت تحت وقع كلماته الصادقة النابعة من قلب نقي ، و اللاتي تَمثلتْ في سنابك ذاك الجواد و حوافره ، كل خطاياك ، و اللاتي حُطَتْ عنك بعد ما أنقضَت ظَهرك زمناً طويلًا و كانت تَرمُز لها في رؤيتك و رؤياي الوحوش و الأفاعي و الهوام في دنياك السابقة ، دنيا المُتع الزائلة و فِعل المُحرمات ، تلك الدنيا التي لم تك سوى الصحراء الجرداء التي عبرتها بدعائك أن يغفر الله لك ما اقترفته فيها دون أن ينالك منها وَبال ما صَّنعت فيها و سَويت . و حين عن لك القنوط مِن رحمة ربك ، و تمثل لك شبحاً أو طيفاً مقيتاً و ظَّلَّ يُوسوسُ لك أنه لن يَغفر الله لك ما تقدم ، رأيت ما اقترفت فيها مِن خطايا كأنها سِياج جِيَّف مِن وحوش و هوام و أفاعي ريحها

نَتنة ، فجاءك جوابُ ربكَ مِن السموات العُلى بِقَبول الدُعاء و أنه جَعلَّ له جناحين يَعبُران بك و به ذاك السياج و يُحلقان صوب السماء ، فلا يَكُفان عن الخفقان حتى يهبطا بك إلى حيث بُقعةٍ خضراء مُباركة هي دنياك الجديدة التي تريد أن تَحياها بلا ذنوبٍ و لا مَعاصٍ تُغضب بها الإله و تثير بها سَخطه عليك . و أما الشكل المُتكور الذى أخذه حصانك حينما هَممتَ بالعودة إلى البيت ها هنا ، فكأنما كانت السماء تُريد أن تُنبئكَ بأن الدعاء هو طاقة النور التي تَنفُذ مِن خلالها في أيما انسيابية و حريرية إلى دُنياك الجديدة و حياتك المُطهرة مِن دَنَسِ الخطيئة و المَعصية و ذلك في خضم كل ما تَحياه و يَحياهُ غَيرُك من حياة يَغلَّب عليها طابع النفاق و الاستعلاء و التَكالب على الفوز بِملذات الدنيا الفانية ...

- صَّدقتْ ، فهذا تأويل رؤياي الحق و لن يَصرفُني عن طاقة النور الإلهية هذه أو بالأحرى دعاء ربي في السراء و الضراء و حين البأس شيء ،أيا ما كان هذا الشيء ، حتى ألقى ربي بقلبٍ سليم مُنيب إليه و وَجهٍ مُضيء ،مُنير ، و لا أكُ بِدُعائكَ رَّبي شقيا و لا لِقَضائكَ عَصيا .

حِكمةُ مُبتَلى

ذات مرة ، سمعتُ عن شاب كان يقطن في الحي المجاور لنا يُقال أن له ارادة فولاذية لم يُوفق لنيلها كل أصحاب العزائم الكبرى ، بما فيهم الرؤساء والقادة العسكريون بل و حتى الأبطال الاسطوريون أنفسهم . كنت في حالة من الاندهاش و الذهول يُخالطهما شيء من الميل نحو تصديق كل ما كان يُقال عنه ، بل و رُحت بالفعل أرسمُ في ذهني صورة لما يمكن أن تكون عليه قدرات هذا الشاب من طبيعة خارقة لا يُضاهيه فيها أحد ، و رُحت كذلك أرسم خطوطاً لملامح شخصيته في رأسي دون أن تكون لدي أدنى معلومة عن قدراته الفعلية تُمكنني من رسم ملامح شخصيته في مُخيلتي على النحو الذي فَعلتْ . فقد رأيته بالقادر على أن يجد ضالته المنشودة أيا ما كانت الصعوبات و التحديات اللاتي من الممكن أن تكتنف ذلك و سواء أكانت هذه الصعوبات و التحديات تُطيقها قدرات البشر على الاحتمال أم لا . و كذا تصورته جميل المُحيا و مُنسق الهندام لا يشوب جسده أي عوار ، فهو ، و كما رسمته في مُخيلتي ، كان أبعد ما يكون عن هؤلاء الذين من الممكن أن نَصفهم بالمُهَلهَلين الثياب و الرَّثي الهيئة . و تخيلته أيضا ذا عقلية مُتبحرة في شتى فروع العلم على اختلاف أطيافه بما يُتيح له أن ينجح في فك شفرة أي شيء يَعتريه الغموض سواءأكان هذا الشيء يتعلق بقضية فلسفية مُعينه أو

احدى تلك الجرائم الغامضة التي فشل أهل الخبرة و الاختصاص معاً في حل ما يَكتنفها من غموض .

غير أن الصورة التي كنت قد رسمتها له في ذهني الحالم لم ترضي فضولي و كذا لم تُشبع رغبتي المحمومة في أن أتعرَّف على صاحب هذه الشخصية المذهلة . و حينما وصلت إلى منزله ، وجدتُ عند باب المدخل الكبير لهذا المنزل ما أثار في نفسي التواقة للمعرفة و الاستكشاف لذوي المهارات الخارقة فضول مُستَعِر ، و كان من هذا أنني وجدتُ بقايا قِطَع زجاج مُفتتة إلى قِطَع مُتناهية الصِّغَر ثُم تَلاها حبات رِمال مُتناثرة هنا و هناك و أخيرًا قاعدة ارضية كبيرة من الرخام على أعتاب باب البيت . ثم أخذت أُدقق النظر في ريبة يُخالطها بعض التَجَهُم ، مِن فرط ما كُنتُ فيه مِن ضبابية و غموض من جراء الاشياء اللاتي كنت قد وطأتها للتو بِنَعل حِذائي ، و أخيرًا شكل الباب الذى كان على هيئة دائرة سوداء مُجوفة و مُقعرة ، و في مَركز هذه الدائرة نقطة بيضاء . ثم رَفعتُ يدي لأعلى و أدركت بِشِق الأنفُس الجرس و ضَغطتُ عليه مرتان ، فسَمعتُ ، عَقِبْ انتهاء دَوي رنين المرة الثانية لدقي الجرس في جنبات المنزل ، صوت خُطى أقدام ليست بالمُتناغمة تدنو من خلف الباب ، فأنزلتُ يدي قبل أن أدقَ إياه للمرة الثالثة ، و انتظرتُ في فضول و ضربات قلبي في تزايد مستمر . و ما إن انفتح الباب ، إذ بي أجدُ نفسي في مواجهة رجل مُقَزز ، قَبيح الهَيئة ، رَّث الثياب ، إلا أنه بادرني بالكلام

و بحديثه الي حينما وجدني على ذهولي و دهشتي لا أستطيع أن أنطق بكلمة و كانت الكلمة ما تلبثُ أن تخرج من فمي حتى يبتلعها أو بالأحرى يزدردها حلقي مرة أخرى فلا يفقه لي قولًا :

- نعم ، ماذا تريد يا سيدي ؟

- أريد الاستاذ محمود . هل هو موجود بالمنزل الآن ؟

- نعم ، إنه ذاك الواقف أمامك مباشرة ؛ هل من خدمة يمكن أن أؤديها اليك ؟

فتضاعفت دهشتي و أحسست بأنه قد أصابتني خيبة أمل لم تك فقط من جراء اخفاقي في تَخيله على النحو الذي لم أتصور للحظة أن يكون عليه ، و إنما كان مَردُ ذلك أيضاً إلى أنني لم أفطِن أو بالأحرى أتمكَن من ادراك ما يُمكن أن يكون عليه انسان كهذا تَمنيتُ من طيب و هَول ما نما إلى عِلمي و مسامعي عن قدراته ، و هو ما لم يكن بالقليل ، أن ألتقي به و أجلس لمحاورته و لو لمرة واحدة أخلُصُ خلالها و أهتدي إلى عُصارة تجاربه و خبراته في الحياة ، ثم ما لبثتُ أن أحاوره من جديد ، قائلا له :

- هل لي بأن أجلس معك دقائق معدودة أسألك خلالها عن بعض الأشياء اللاتي تؤرقني و تشغل بالي ليل نهار مُذ الساعة التي نَمَت إلى مسامعي خلالها و اللاتي ليس لَهُن ثَمة جواب إلا عندك ؟

- هل لي بأن أتعرف أولًا على من ذاك الذي يُخاطبني بتلك النبرة الرقيقة و المصدومة في ذات الوقت و أنال و أنا في أيما شعور

بالنشوة شرف الحديث إليه ؟

- أنا جارُك مصطفى ، أقطُنُ بالحي المُجاور لذاك الحي الذي تَقطنَ به .

ثم ما لبث أن سمح لي بالدخول و طلب مني أن أُغلق الباب من خلفي في هدوء ... ثم كانت المفاجأة التي كادت أن تَذهبَ بعقلي ، فقد كان الرجل كفيفاً ، و هو ما لم أتحقق منه في البداية لكَونِه كان مُرتدياً نظارة سوداء و كان يتحدث إلي عند الباب بشكل طبيعي بحيث أنني لم استشعرُ و لو للحظة واحدة أنه لا يُبصر و ذلك طِيلة الفترة التي كنت أُحاوره فيه لدى الباب؛ و كان مِن هَول ما رأيت أنه كان يتكأ على عصا غليظة ، حيث كان بإحدى قدميه شيءٌ من الاعوجاج و عدم الاستقامة لم يكن من المُمكن له في ظل وجوده أن يَسير بشكلٍ طَبيعي دون أن يتكأ على عصا غليظة كهذه و كان ذلك أيضا لأنه كان بديناً جدًا يَكاد يَزن أكثر من ١٢٠كيلو جرام . و حينما جَلستُ إليه أُحاوره،انتابني الفضول بشكل جنوني بما قد أحسست معه بأنني مَدفوعاً بشكل لا شعوري نحو أن أعرف منه المزيد والمزيد عن قدراته .... و لكن ترى ، أية قدرات يمكن أن تكون و تأتي لرجل على حالته تلك لا يقدر حتى على القيام على أدق اموره و أكثرها خصوصية :

- أستاذ محمود ! لقد دفعني الى المجيء اليك اليوم أمرٌ استحوذَ على جَّل اهتمامي طيلة الأيام المَاضية ...

فقاطعني قبل أن أُكمل كلامي و قال ، و هو يَعتصره شعور

بالمرارة بدا جلياً في نبرة صوته التي كانت تَنُمْ عن ضيق جم :

- و هل قالوا لك أنت أيضا ؟ عجباً لهؤلاء الناس ، ما أن يجدوا موضوعـاً صـغيرًا تافهـاً غيـر ذي أهميـة على الاطـلاق ، حتى يُضخمونه و يُسقطون عليه من خيالاتهم على النحو الذي يُرضيهم و يُثير فضول الآخرين و يَجذبُ انتباههم نحوهم ما أن يخوضوا في الحديث عنه أمامهم !

لفـتَ نظري حينئـذ ردة فِـعله العَـصبية تلـك و التي لـم تكـن تـتلاءم مُطلقـاً مـع مـا ذكرتـه لـه مـن مـديح و اطراء في حَقِـه مـن جانب كل مَن حدثوني عنه ، فبادرته قائلا :

- من المؤكد أنك قد أسأت فهمي يا سيدي ! أنا لم أقصد أن أُثير حَفيظتَك ازاء أمرٍ قَدرتَ سيادتك سلفاً أنني سوف أُحدثك بشأنه من قبل أن تتيقن من أنني كُنتُ بالفعل سوف أُحدثكَ بشأنِهِ أم لا ...

- لستُ بحاجة إلى أن أنتظر حتى تَفرغَ من كلامك يا جاري العزيز. أعتذر، لم أقصد الاساءة ، و لكن ما كُنتَ على وشك أن تفضي به أعلمه جيدًا لأنه و ببساطة جاء إلي ها هنا ، و ذلك على مدار الاسبوع المنصرم فقط، ستة أفراد أنت سابعهم و هم لا ينهزهم سوى الحديث عن قدراتي المذهلة و عقلي الراجح و ارادتي الحديدية ...

- و لكن ، لما تُراهم يكذبون في هذا الشأن ؟ فلا بُد و أنهم رأوا فيكَ أشياءً و لمسوا لديك ردود فعل أقل ما يقال عنها أنها لرجل

ذو ارادة فولاذية و المفترض أن يكون ذلك بالنسبة لك مصدر فخر و اعتـزاز لا العكـس كمـا هـو بـاد لـي فـي أسـلوب كلامـك و نبرة صوتك التي يَغلُّب عليها طابع النفور و الضيق .

- هـذا إن كان مـا يقولونـه حقيقي لا زَيـفَ و لا مُبالغـة فيـه ، إلا أنني أؤكد لك أن كل ما سَمعتَه عني و دفعك إلى المَجيء مُهرولًا إلى بيتي ها هنا انما هو مَحض كذب و افتراء ليس الا .

- عَـفوًا يـا سـيدي ، لكنني لا أجدُ أدنى نفع أو مصلحة لهم في أن يذكروا عنك ما ذكروا ، إلا اذا كانوا يملكون على صحة أقـوالهم أدلة دامغة لا يَعتري أيا منها أدنى شك أو ريبة ...

فاستغرق في التأمل لحظات و كأنه كان يبحث عن رَدٍ مُقنِع ، و بعـدها جـاء على لسـانه مـا يَـلي مـن كلمـات تنبئ عمـا كان في مَكنون صدره :

- إن مـا يَـتشدقون بـه ، أؤكـد لـك ، إنمـا جـاء بفعـل حـوادث وقعـت لي حقـاً و أنـا شـابٌ صـغير لـيس لهـا مـن نَـصيب في النُـدرة و التفـرُّد إلا كونهـا كانـت تَـحدُث للمـرة الأولى في ذاك الحي المُـنغلق على ذاتـه ؛ ومنهـا أنـه كان قـد بَلـغَ بي اليـأسُ مَبلغـاً اسـتحال معـه حِـينها في نظري أن تسـتقيم لي الحياة أو تسـتمر على وتيرتهـا الرتيبة ، المَهينة و المُملة تلك .

- و ماذا فَعلتَ حينئذ ؟

- حاولتُ الانتحار ليأسي من أن أُكمل حياتي على هذا النحو ،و أنا أُمثل عِبئاً على كل من حَولي و لا أحوذ مشاعر في قلوبهم إلا تلك

الخاصة بالشفقة و الرثاء لحالي . و كان مما يَزيدُ الأمور سوءًا في عيني في تلك الآونة ، أن أحد زملاء الدراسة لإياي قد استهزئ بي و عايرني ذات يوم بفقدان بصري و كذا بما كنت عليه من بَدانة مُفرطة و العصا التي كُنتُ أمسكُ بها و اتوكأ عليها و تكاد لا تُفارق يدي سُوى عند الخُلود إلى النوم ، فقد كُنتُ لا أستطيع السير في أماكن بعينها و أنا متكأ عليها دون أن يحدث لي شيء ، كأن اصطدمُ بِجسمٍ صَّلبٍ مُلقى على الأرض فأجني من جراء ذلك شفقة البعض و غضب و سخرية البعض الآخر كما فعل زميلي الذي حدثتك بشأنه آنفا .

- و ما الذي أعاقَ القيامَ بِتلك المُحاولة ؟

- لقد قُمتُ بهذه المحاولة بالفعل ، حيث خطر لي أن أقفز من فوق جسر - قيل لي من قبل أنه شاهق الارتفاع - الى الماء مباشرة ، إلا أن المياه كانت راكدة و طينية و المسافة من حيث أعلى الجسر حيث كنت أنا واقفا الى أسفل حيث سَطح الماء لم تكن تجاوز السبعة أمتار ، فاستيقنتُ نَفسي حينئذ من عَدَم صِّحة و كَذِب ما كان قد قيل لي على لسان أحد أقاربي من قبل و كأنه كان يعلم في قرارة نفسه انه ربما يأتي اليوم الذي يَعِنُ فيه لي أن أُفكر في الانتحار و أراد هو من وراء فِعلتِه تلك أن يقترح علي وسيلة زهيدة الثمن في حالة اذا ما أقدمتُ على محاولة كتلك ناسياً أن المياه تَكون في أقصى حالات الجزر في فَصل الصيف و تحديدًا في تلك البُقعة التي كُنا نَقفُ عندها و كان حَديثهُ إلي عن تلك

البقعة في فصل الشتاء و الذي كانت فيه تلك البقعة تفيض بالماء و الذي يكون مَنسوبه مُرتفعاً جدًا في تلك الآونة ... و حينما قفزتُ إلى الماء لم تكن اصابتي بالخطيرة و مَشيتُ في هذه المياه الراكدة اللاتي كانت لا تَكاد تَصلُ إلى ما فوق كاحلي سُوى بمسافة بسيطة و ذلك بعد أن كنت قد قَطعَتُ مسافة كبيرة و أنا على هذا النحو للوصول إلى الشاطئ ، و في غضون ذلك ، حدث أن انحسرت المياه بشكل كبير بفعل الحرارة الشديدة و سمعت أصوات جموع غفيرة تأتي إلى اذني من كل حدب و صوب و على اثرها اهتديتُ الى مكان الشاطئ والذي كانت هذه الجموع مُرابضه على كلا جانبيه... فسَرت شائعة بأن شابا كفيفا لا يجيد السباحة قفزَ من أعلى جسر شاهق الارتفاع و من مسافة أكثر من سبعين مترا و سار بقدميه على الماء حتى بلغ الشاطئ دون أدنى مساعدة من أحد . و أثارت هذه الشائعة ردود فعل واسعة لدى أناس كثيرين أخذوا على عاتقهم رواية ما حدث لي في أحيائهم ،و كل حسب اجتهاده في صياغة و ترتيب ما تأتي به قَريحته له من خيالات في هذا الصدد . و للأسف الشديد ، فإن الذي أَعطى للمَسألة أبعادًا أكثر مِصداقية في أعين الناس كانت هي وسائل الاعلام و اللاتي سَلطَتْ الضوء على الأمر بشكل مُبالغ فيه جَعلَ مما حدث معي من حادث عادي تافه لا أستحقُ لقاءه سُوى الشجب و التنديد حادثاً اسطورياً عاد بي و بِمَن نما إلى عِلمهم تلك الرواية إلى حيث قِصص الخيال اللاتي كان يُطالعها البعضُ حول شخصيات

خيالية لا وجود لها مِثل هِرَّقل ، بوسايدون ، و آلهة الإغريق القدامى .

- و لكن من أين لَهُم بكل هذا اليقين في كلامهم و في تعبيرات وجوههم و هم يحدثونني عن لمسة مباركة أودعها فيك الخالق و يَصير معها كل شيء إلى الأفضل دائماً ؟

- إن ما حدثوك عنه بقدر كبير من اليقين على حد قولك لم يَكُن إلا استكمالًا لصورة كانوا قد رسموها لي بالفعل في مُخيلتهم مُسبقاً و ظلوا في انتظار وقوع أي حادث تافه ليجدوا لأنفسهم من الواقع المساحة البرهانية على صحة ما يتوهمون بشأن قدراتي الخارقة ،كما يزعمون . فقد حدث في يوم من الأيام ، و بينما كُنتُ أَعبُر الطريق و أمامي امرأة مُسِنة و بِصُحبتها ابنتاها ،أن جاءت إحدى السيارات و التي كانت تسير بسرعة جنونية حتى أنها كادت لتطير في الهواء و لا تُلامس الارض ، و تَوقفتْ في اللحظة الاخيرة قبل أن تقوم السيدة المُسنة بالعبور مِن أمامها وبِرفقتها ابنتاها اللتان تَوقفتا على الفور ما إن تَوقفتْ هذه السيارة بالقُرب منهما مُباشرةً و لم تَكُن حينئذ تَبعُد عن ثلاثتهن إلا بما يَتسع لموطأ قدم . و في ذلك الحين ، اطلقتُ أنا صرخة مِن أم رأسي ، كادت من حِدة نبرتها لتُصيب مَن تَقَع في إحدى أذنيه بالصمم،و ما كان ذلك إلا لأنني كُنتُ أظن أن هذه السيارة قد حادت عن مسارها و تتجه صوبي أنا . و مِن هَول الانتظار و فزعي مما كان يُمكن أن تفعله بي اندفعتُ في غير هُدىً و سقطتُ على الأرض

مُصطدماً بالسيارة و أنا مُنكَبٌ على وجهي و هي واقفة تماماً و على بُعد مَوطئ قدم _ كان هو ما كنت أتوكأ عليه بقدمي اليسرى و أنا مُلقى على وجهي فوق مُقدمة تلك السيارة مُشكلًا درعاً بشرياً فيما بينها و بين الأم و ابنتيها أو هكذا كان يحلو للبعض أن يَتصور الأمر

- كما قُلتُ آنفاً ، مِن الأم و ابنتيها مباشرة ؛ فأُشيعَ بين الناس أنني قد تَمكنتُ مِن ايقاف تلك السيارة ، و التي كانت تسير بسرعة جنونية ، بجسدي حتى لا تَصدم السيدة المُسنة و ابنتيها و اللتان أُصيبَت إحداهما بجُرح قطعي غائر في رأسها و الذى ما إن وضعتُ يدي المباركة عليه حتى شُفيَّ تماماً و أصبح و كأنه لم يَكُن و أفاقت البنت الأخرى بعد ما كانت قد ظلت مُلقاةً على الأرض مَغشياً عليها و ليس بها أي مظهر من مظاهر الحياة حتى جِئتُ أنا و وضعتُ يدي المباركة عليها ... و دَوتْ أصداء هذا الأمر في أرجاء المنطقة حتى انني فُوجئت بأُناس يأتون إلي مهرولين لكي أشفي ما بهم أو بأطفالهم من أمراض عضال عَجُزَ عن إيجاد العلاج الناجع لها أهل الطب ، بل انه وصل الأمر ببعض الذين يحسبون على النُخبة الثقافية و السياسية أن يأتونني لأُفضي إليهم بأسرار ما قد يَخفى عليهم من أمور غامضة عسير عليهم فهمها أو التَكَهُن بها في الوقت الحالي و كذا من أجل أن استشرفَ ما هو قادمٌ إليهم في المُستقبل ،القريب و البعيد على حد سواء .

- لكن هل يُمكن أن تصل بنا عقلية الخُرافة إلى هذا الحد ؟

- بكل تأكيد ، فالمجتمعات العربية بشكل عام ، و المجتمع المصري بشكل خاص ، تَميل إلى الإيمان المُطلق بالغيبيات و بِحُكم طبيعتها و تكوينها فهي تَميل إلى الخَلط فيما بين مَنح الله سبحانه و تعالى و اختصاصه بعض خَلقِه و عباده من الأنبياء و الصالحين بِقُدرات اعجازية بُغية تحفيز الناس نحو الإيمان بِمَن وهبَ هؤلاء الأفراد و اختصهُم بهذه القدرات و بين أزلية و خلود هذه القدرات بشكل يَستبين الله عَزَ و جَلْ مِن خلاله مَدى إيمانهم الراسخ بِمُعجزاته سبحانه و أزليتها بِصَّرف النظر عن اعتبارات الزمان و المكان .... فَمِثل هذه القُدرات الاعجازية ما كانت لتُمنح سُوى لأفراد كان يستحيل على أقوامِهم أن يؤمنوا بوجود إله خالق إلا إذا رأوا صورًا للإعجاز مِن قِبَل أفراد مِن بينهم لم يعتادوا منهم على الإتيان بِمِثل هذه الأشياء الخارقة مِن قَبل أن يُنزَلَ عَليهم وحي مِن السماء . أما الآن فقد تَمَت جميع الرسالات و لم يَعُد هناك مِن ثمة داع إلى أن يَصطفي الله أحدًا من عباده و يَختصه بِقُدرات خارقة لِيُثبِتَ من خلاله أنه موجود سبحانه و تعالى ، بل إن العِباد الآن هُم مَن عَليهم إثبات الوجودية و الوحدانية لله و عُبوديتهم المُطلقة له من خلال العمل الصادق و الخالص بصفتهم جُند مِن جنود الله المُصطَفين ، بل و خَير خَلقِه سبحانه ، و ذلك بابتغاء وجه الله تعالى و بالعمل بأوامر الله و الانتهاء عن نواهيه و كذا الإيمان المُطلق بضرورة التَسلُّح بالعلم و الإيمان معاً في مُجابهة تيارات الكفر

والالحاد والعُنصرية والتَحيُّز لجنسٍ دون غيره من الأجناس و ذلك بُغية وئد تلك التيارات الفاسدة واستئصال شأفتها مِن على وَجه الأرض .

- أشكرك على توضيحك لما كان خافياً علي و أصدقك القول بأنني ، و قبيل هذا اللقاء ، كنتُ أجد نفسي واحدًا من بين هؤلاء الذين يَظنون بك ما ليس أنت بِمُدعيه و قد خابَ ظني ما أن أتيتُ الى هنا و رايتكَ رأي العين و أنت واقفٌ أمامي على تلك الهيئة . حقاً إن على الانسان ألا يُصدق الا ما رأته عيناه و سَمعته و وَعته اذناه و نَفُذَ إلى عَقلهِ خالياً و مُنزهاً عن الأهواء و الأغراض و الاسقاطات النفسية اللاتي يَعمُد إليها البعضُ في كثير من الأحيان بُغية أن يُتَمموا ثمة صورة ناقصة في أذهانهم فيُعلِّلون بها ما يَنتابُ انفسهم من عَجز عن الفعل و الإبداع ، وكذا جهلٍ و ظلاميةٍ وكَسل فكري ازاء امور بعينها في حياتهم واللاتي ما أن يعجزون امام الإتيان بتفسير عقلي مقبول لها حتى ينصرفوا نحو خزانة الخُرافة و الاسطورة و يشرعوا في اسقاط ما بها على شخص يجعلون في شخصه مفاتيح حل هذه الامور كُلها مُجتمعة و في لمح البَصر ، فيكون بالنسبة اليهم بمثابة المُخلِّص أو بالأحرى مَبعوث العناية الإلهية ليُفرج عنهم ما هم فيه مِن كَربٍ و بَلاءٍ شديدين .

- و أنا مُمتن لك أشد درجات الامتنان لما لمسته فيك من تَفهُم و استيعاب للمَوقف و حُسن تقدير للأمور و رؤيتها كما هي و ليس

كما نرجوها نحن أن تكون ، فإنها و أيمُ الله حكمة صارت غائبة عن الكثيرين اليوم .

- و لكن بقي سؤالا واحدًا ما زال يدور بخلدي و يأبى أن أنصرف من ها هنا من قبل أن أجد له عندك اجابة الان و على الفور ... ما سر ذاك الزجاج المتفتت تخلفه حبات الرمال ثم تلك القاعدة الأرضية الكبيرة من الرخام ؟ ... ثم ما بال ذاك الشكل الغريب للباب الذي هو على شكل دائرة سوداء مُجوفة و يتوسط إياها نقطة واحدة بيضاء ؟

- حسنا ! الحق اقول لك أنني بعد محاولة انتحاري تلك و ما جرته علي من متاعب لم أزل اتجرع الأمرَّين منها الى وقتنا هذا ، خشيت على نفسي و على آخرتي من أن أُفتَن في دِيني بتلك البِدَع و بما يردده الناس عنها من أنها كرامات يدعي البعض امتلاكي لها و ذاك ما كان من شانه ان أنصرف قسرًا صوب الظن بدنياي أنها دار النعيم و البقاء و رفعة الشأن ، فخشيت أن اشري دنياي بآخرتي و نعيم الدنيا الزائل بذل الآخرة المقيم ، فأكن من هؤلاء الذين انتقدتهم بقولي ، ممن يخلقون لا نفسهم مساحة برهانية من احداث لا سند لها مِن الواقع و لا تَمُتْ بأي صلة لواقعي الأليم ليُسقطون عليها ما يَعِنْ لهم مِن دلالات ومَعانٍ لا صحة لها. و الحال أنني عَمدتُ الى اختيار الواقع المُعاش و لو كان مؤلما ونبذت وراء ظهري ما خلا ذلك و لو كان فيه النعيم المقيم لنفسي المعذبة بتلك الحياة الدنيا ..... و أما ما رأيت ،فهاك تأويله :

وضعتُ قطع الزجاج المتناهية الصغر ليظل عالقا في ذهني كلما وطأتها بكلتا قدمي أو وطئها غيري أن كل صائر الى زوال و لا يبقى للمرء الا عمله ، فلا آسى على ما فات أو ما أُبتليت به في جسدي ؛ ذاك أن هذا الجسد انما هو سجن لي لا أتحرر منه الا حينما تصعد روحي الى بارئها ، و أما حبات الرمال المتناثرة فهن أنعم الله اللاتي لا تحصى و اللاتي مَهما أديت من حَمدٍ و شُكرٍ لله عليها فلن أوفيه سبحانه حق شكره عليها ، و كذا حتى لا آتي ما يستجلب غضبه علي سبحانه بفعل فيه قنوط من رحمته و اجحاد لأنعمه علي ؛ و أما القاعدة الأرضية الكبيرة المصنوعة من الرخام ، فإنها الحياة الدنيا ، و التي كُلما أطئها ينتابني شعور مسبق بإمكانية ان تنزلق احدى قدمي في لمح البصر و أنا فوقها ، و كذا فإن فيها اشارةٌ إلى حقيقة أن ما نبتغيه في هذه الدنيا لن ننله على النحو الذي نتمناه ،ذاك أن الدنيا دار بوار ، فلا يمكن بالنظر الى هذه الحقيقة الدامغة أن يكتب لأحد فيها الكمال أو التماميه في أمر من اموره ؛ و أما الدائرة السوداء المُجوفة فترمُز الى عملي في دنياي الفانية ، و أما النقطة البيضاء التي في وسطها فما هي سُوى عملي الصالح الذي أرجو الله أن أصيبه في دنياي و أموت و أنا عليه .....

- أستاذ محمود ! اسمح لي بان أنحني لك احتراما و لتعلم انني لن أعمد الى منطق الخرافة بعد اليوم فيما أقول و أرى و أسمع ... فلا مكان عندي سوى للعقل إلا فيما يكون متعلقا بنص من كتاب

أو سنة مُتعلقٍ بأمر غيبي كالروح و الساعة و ما إلى غير ذلك مِن أمورٍ تَعجز عقول البشر مجتمعة ازاءها ، ذاك أنه وحده سبحانه يعلم عجز و محدودية عقلنا البشري في امور غيبية كهذه و كذا أنه لا إيمان دونما غيبيات نعتقد فيها و ننطلق منها فيما نأته مِن أفعال في حياتنا ، و الحق أن ذاك كُلهُ يَكون مُتأتياً و كامناً في القلب العامر بالإيمان و المُصطَبِر عِند كُل بلية .

ليلةٌ دافئة ..... الطفلُ القابعُ في داخلنا

في إحدى ليالي البرد القارس ، اجتمعت أنا ، و أخي و أمي حول نار المدفأة المشتعلة منذ الصباح . كانت أمي ، السيدة " سارة " ، تجلس على كرسيها الوثير في مقابل المدفأة تماماً لتنعم بالحرارة المنبعثة منها و كنا نحن ، أنا و أخي " أحمد " ، نجلس على جانبي هذا الكرسي الذي كانت تجلس عليه في البداية و فرائسها ترتعد من البرد و الذي كان يدب بجذوره الخبيثة في كل أرجاء المنزل ، فيما عدا تلك البقعة التي اجتمع فيها ثلاثتنا ، و كان ذلك قبل أن نأتي نحن و نجلس ملاصقين لها و كلاً منا يطوق عنقها من الخلف بإحدى ذراعيه و يميل فوقها بجانب من جذعه تماماً مثل العريش الذي أسفله يستظل عابرو السبيل من القيظ الضاري أو المطر المنهمر كالسيل من علٍ .

حاولت أمي جاهدة صرف أذهاننا عما كان يعتري أطرافنا من تيبس بفعل تلك برودة شديدة كادت أن تعصف بإحساسنا بها و تهوي بنا الى حيث قاع جُبٍ فيه تنمو و تترعرع بذرة شجرةٍ عملاقةٍ جدبة الأغصان و عديمة الأوراق اسمها هو جُمود الشعور و تبلُّد الحواس ، فما كان منها سوى أنها بدأت تقص علينا بعضاً من قصصها المعتادة و الرتيبة في بعض الأحيان و التي كانت قد اعتادت أن تتلوها على مسامعنا قبل سفرها في مهمة عمل بالمكسيك منذ ما يقرب من سبع سنوات . أعتقد أنها لم تكن

تلحظ بعد ما قد صرنا عليه و عدم التناسب فيما بين ما كانت تفعله قبيل سفرها و ما يجب عليها فعله في تلك الآونة بعد عودتها إلينا سالمة .

و الحادث أنها راحت بالفعل _ و هي في غمرة شعورها بالنشوة و الانفعال مما كان يحلو لها إتيانه معنا قبل سبع سنوات من الآن _ تقص علينا إحدى هذه القصص و حاولنا نحن عبثاً التظاهر بالإنصات و الاستغراق الحالم بذهننا و خيالنا الجميح فيما كانت تقول ، غير أنه حدث و أن لاحظت بقسمات وجهينا ، أنا و أخي ، مَسحةً من تبرمٍ و تململ حيث كان يحلو لكلينا الجلوس حولها فيما مضى ، و نظرت إلي قائلة بعين يملأها الشعور المرير بخيبة الأمل أكثر منه بالغضب مما كنا نحاول أن نحبسه و نجعله متواريا حتى لا تلحظه هي و تستبد بها الشجون كما هو حادث معها الآن :

- محمد ! لما لا أرى في عينيك البنيتين نظرة التوهج تلك التي كنت أراها بكلتا حدقتيك قبل أن أسافر جواً إلى المكسيك ؟ ... هل هناك ما تخفياه عني ، أنت و أخاك ؟

فأجبت على استحياءٍ و خجل ، قائلاً :

- لا يا أمي ، على الاطلاق ، إن كل شيء يسير على ما يرام ، لكنه ربما يكون هو غيابك الطويل عن البيت و عن ناظرينا هو ما يدعونا إلى التفرس في وجهك قدر ما نستطيع، فنشرد منك و لا نستطيع التركيز و الاصغاء لحكايا الأطفال اللاتي كنت ترددينها على

مسامعنا منذ سبع سنوات أو يزيد ...

بدت أمي غير متفهمة لما كنتُ أقصده من وراء تقطيعي لأجزاء الكلمتين " حكايا الأطفال " كما لو كنت بعد طفلاً صغيراً يحاول أن ينطق الكلمات الطويلة على أجزاءٍ حتى تكون مفهومةً و واضحةً لأذن من يسمعها و في المقابل انشغلت هي فقط في الرَّد على ما صغته لها من جملة سببية بها تقطيع لبعض ما جاء بها من كلمات بالتأكيد على أنه لم يكن بمقدورها العودة و ترك مهام عملها الدبلوماسي هناك ، و كذا أنها كانت دائمة الاتصال بنا و الاطمئنان على أحوالنا و طريقة سيرنا في المراحل التعليمية المختلفة إلى أن وصلنا إلى حيث نحن الآن ، في مرحلة الجامعة ...

و قبل أن تتم كلامها ، علمتُ أن ما كنتُ قد أشرتُ إليه ايماء لم يقع منها حيثما أردتُ له ... و كان هذا ما خالج أخي من شعور . فاضطررنا صاغرين إلى الذهاب أو بالأحرى الارتداد إلى حيث أرادت لنا ، لكن بشكل يغلب عليه التبرُّم و عدم الاكتراث ، محاولين عبثاً إخفاء هذا الشعور أو كتمانه في حضرتها ...

و حينما استرقنا السمع لخطىٍ تصعد سُلَّم الدرج المؤدي إلى ردهة الڤيلا و حيث كان الباب الواقع في وسط تلك الردهة و في الجهة المقابلة مباشرة من ذاك الذي هو الآن يصعد الدرج ، انتابتنا حالة أشبه ما تكون بالانفراجة و تنفسنا الصعداء لما أيقنا بأننا كنا مشرفين على سماع شيء آخر غير ما كانت أمنا

تـردده مـن ترهـات و أسـاطير تصـيب مـن كـان يسـمعها و في مثـل سـننا بصـداع نصـفي ، ألا و هـو سـماع صـوت ايلاج المفتـاح في الباب و دورانه مرتين ثم انفتاح الباب إلى آخر مدى كان يمكنه أن يَصل إليه لنخرج مما كنا فيه من احتجاز اجباري ...

و حين حـدث لنـا ذلـك ، انتفضـنا مـن أماكننـا و ذهبنـا إلى حيث وطئ أبانا بإحدى قدميه ، و بالتحديد قدمه اليمنى و كان على وشك أن يتبع إياها بقدمه اليسرى و التي كانت بعد معلقةٌ في الهواء و لم تهبط إلى جوار الأخرى و التي كانت قد بدأت في أن تستدير ناحية اليمين قليلاً و إلى جوارها القدم اليُسرى لإغلاق الباب دفعاً باليد اليمنى من فرط ما كان يستبد بصاحبها من اعيـاء شـديد ، مُهللين بقدومـه و كأننـا عُـدنا أطفـالًا مـرة أخـرى . نعم ، فأحياناً ما يرتد الكبير طفلاً صغيراً حينما تستبد به الحياة و تعصف به ظروفها و كذا الطبيعة القاسية و قوانينها الصارمة .

الحق أني اسـتوقفني هـذا الاعتقـاد قليلاً ببعض مـن امعـان النظـر و التفكير العميـق ، بيـد أن هـذا الأمـر لـم يطـل بي المقـام و الوقوف عنده كثيراً لِما كنت منشغلاً به أنا و أخي من محاولة التظاهر بالفرح بقدوم أبينا و أننا لم نفعل ذلك مقتاً و بُغضاً أو هرباً مما كانت تقص علينا من حكايا نَضيقُ بها ذرعاً ...

كنتُ ألمح بطرف عيني عُبوس وجه أمي و هي ترى المشهد غيرَ مبديةٍ أية ردود فعل ازاءه ، علنية كانت أو خفية ، عبر الايماء و التعبير الحركي ، كأنها تستنكر علينا أفعالاً ترتد بنا إلى حيث كنا

صغاراً ... نَهضتْ و نحن على هذه الحال من فوق كرسيها الوثير الهزاز و ذهبت إلى حيث المطبخ لتعد لنا العشاء بعدما ألقت على والدي تحية ترحاب هنأته فيها بسلامة الوصول و العودة مُتمنيةً له أن يكون قد أمضى يوم عمل طيب و ليس بالشاق ...

و بينما كنا أنا و أخي " أحمد " بصدد تحضير المائدة استعداداً للعشاء و كان أبانا في هذه الأثناء يقوم بتبديل ملابسه و يغتسل و يتوضأ ليؤدي صلاة العشاء ، إذ بنا نسمعُ صوت صرخة أمي قادم من المطبخ إلى حيث غرفة الطعام حيث كنا نحن ، صرخة لم تأت إلى أذن أبينا المنهمك في تلك اللحظة في التوضؤ بدورة المياه بعد ما كان قد أغلق على نفسه الباب من الداخل و كان يمنعه خرير سيل المياه المتدفقة من الصنبور من سماع ما كان يجري بالطابق الأرضي و هو في الطابق العلوي بغرفة نومه و التي كان ملحقاً بها حمام خاص تماماً مثلما كان عليه الحال في غرفتي النوم الخاصتين بي و بأخي " أحمد " ...

هممنا و بادرنا على إثر تلك الصرخة المفزعة بترك ما كان في أيدينا ، فسقط و هوى على الأرض و أحدث صوتاً كقرع إناء نحاسي سقط على سطح صلد فظل صدى سقوطه يدوي بالمكان محدثاً طنيناً يكاد أن يُصم الآذان ...

ذهب كلانا و بداخله فزع لا يقاوم كطفل أوشك أن يُؤخذَ عُنوةً مِن حُضن إحدى أبويه بعد ما شعر بأيما طمأنينة و حنان به ، و ما يلبث أن يلوذ بالصُّراخ و الآنين إلى أن يعود إليه ما

كان قد ضاع منه بفقدانه لهذا الحضن و انتزاعه منه عنوةً ، مِن حيث كان شعوره الجَم بالطمأنينة و الحنان المُفرطين ...

و زاد ما كنا عليه من ذهول و صدمة أنه حين وصولنا للمطبخ و حيث كانت هي مِن المفترض أن تكون واقفةً تماماً حيث مكانها المُعتاد أمام المَوقد الذي وجدناه مُشتعلًا آنذاك و ليس يعلوه أية أواني للطهي ، أننا لم نَجد لها أي أثر و كأنها كانت حبة تراب أو أثلام دخان خرجن من النافذة أو تلك الفُرجات الضيقة و المستطيلة و المُتراكبة فوق بعضها البعض لجهاز صرف الأبخرة و كأنها تعاريج أمواج بحر في غَسَقْ الدُجى و ذلك مع أول هبة ريح أو هواء ماصة أو شافطة خرجت من جهاز صرف الأبخرة ذاك و الذي كان مثبتاً بالأعلى ، و في الأسفل منه و تحديداً ناحية اليسار قليلاً النافذة ، التي كانت مُواربةً قليلاً و كانت هي الخاصة بباب المطبخ المُطل على الفناء الخلفي للمنزل و المؤدي إليه في ذات الوقت ، ذاك الباب الذي وجدناه مؤصداً مِن الداخل و هو الأمر الذي دفعنا إلى أن نفكر في عِلة اختفائها على ذاك النحو الميتافيزيقي الذي عرضتُ له آنفاً ، و البعيد كل البعد عن الواقع و ما قد يتصوره العقل مِن ظنيات و احتمالات في أي أمرٍ مِن الأمور التي قَد يَستغلق عليه فهمُها و إيجادُ تفسيرٍ مَنطقي لها ...

كان صوت صراخها ما زال يدوي في أذننا و نحن نهرع من باب

المطبخ المؤدي إلى حيث فناء الحديقة و نبكي كأطفال وجدوا أنفسهم على قارعة الطريق دون مأوى أو مأكل أو مشرب و عرضة لغير ذي قلب رحيم من الحيوانات أن يفتك بهم أيما فتك و يمزقهم إرباً ... كان صوت صراخها أشبه بسوط يسومنا سوء العذاب و الذل و الهَوان ...

و حينما عثرنا عليها ، وجدناها فوق الأريكة تبكي و تزرف أحرَّ الدمع بمنأى عن أعين من كانوا في المنزل حتى لا ينكشف و ينفضح أمرها و يُزاح النقاب عما أرادت له أن يبقى طي السرية و الكتمان الشديدين ... وفي خضم أنينها و بكاءها ، قَدِمَ إليها أخي " أحمد " سائلاً إياها على استحياء و بصوت منخفض كأنه يهمس في أذنيها و يحنو عليها بما كان يَعْمُدُ إلى استخدامه مِن نبرة صوت رقيقة و هو يُحدثها قائلًا :

- ما الأمر يا أماه ؟ و ما بال تلك الصرخة التي سمعناها تخرج من أحشائك لتدوي بكل جنبات المنزل ؟ ... أخبرينا ماذا يسوءك و نَعدُكِ أنه لن يتكرر مرة أخرى إن كان بإمكاننا الحيلولة دون حدوثه مرةً أُخرى ، هذا إن كنا نحن مَصدر ما أنتِ فيه مِن ضيق في الصدر و عذابٍ مُضنٍ نَلحظه في تجويف عينيك و نستشعر قَيده الدامي في أعماق روحك الملائكية الرقيقة ...

قال أحمد جملته هذه رامياً إياي بنظرة عتاب و لوم شديدين على ما كنا قد أتيناه ازاءها من تركٍ و تخلٍ حينما سمعنا صوت

المفتاح يلج في الباب و يدور مرتين ، ثم انفتح - بعد ذلك مباشرةً - البابُ على آخره ...

قالت أمي بنبرة لا تخلو من حزن يُخالطه ألمٌ و حسرةٌ بديا و كأنهما ليسا حديثا العهد بحلقها و كأني بها أمضت عمراً في جُب البؤس و الحِرمان :

_ انصرفتما عني إلى حضن أبيكما تنهلان من عطفه و حنانه ، و كأنني ما عُدت بالجديرة بحبكما و لا بالخليقة باغداق العطف و الحنان عليكما ... أعلم أنكما قد صرتما كباراً على نحو لا يتسنى معه إليكما و لا إليَّ أن نعود بعجلة الزمن إلى الوراء و نعاود معاً سماع تلك القصص الخرافية و الاسطورية تسيل على لساني الجدب منذ سنين بفعل أنه لم يَعُد يُحاوركما و يرى في أعينكما نظرة الشغف و الامتنان التي طالما أشعرتني بالرضا ، اضافةً إلى أني كابدت الكثير و الكثير في منفاي و بُعدي عنكما و مرت علي الليال الطوال التي كنت أجلس خلالها و أتخيل وجودكما أمامي تسمعان إلى ما أتلو عليكما من قصص و تغفو أعينكما الجميلة و هي يتراءى و يتمثل لها بالحلم رؤية أبطال قصتي من لحم و دم ، فينعمن بالنوم الوفير و الهنيء ... ما أردت لكما و لنفسي سُوى استعادة ذكريات الماضي الجميل حيث كان المرح و اللهو هما كل ما يشغلان حيزاً في ذهنيكما الحالمين و ذهني معكما ... أأكون قد أجرمت بحقكما لمجرد أنني أردت صرف بالكما عما تشعران به من برد قارص و تيبس

بالأطراف و الذهاب بكما إلى حيث دفء الاسرة و غطائها الحريري الوثير... أأكون قد اقترفت بذاك اثماً عظيماً لا يُغتفر ؟! ... أجيباني ! فأنا لا أطيق تحمل هذه الفكرة بين أحشائي تنهشني كلما حَللتُ بمكان أو نزلتُ به و تُكشر عن أنيابها الحادة ، فما ألبث أن ألوذ بالفرار مذعورة منها كطفلة صغيرة راعها رؤية كابوسٍ مَقيتٍ و مُخيفٍ ، تماماً على النحو الذي حدث معي في المطبخ منذ قليل و أنا أُعد طعام العشاء ، فوجدتُني حينها مُنساقةً إلى أن أعود مِن حيث أتيت و حين لم أجد أثرًا لأحدٍ منكما ازدادت مُعاناتي و لم أجدُ بُدًا مِن أن أغادر البيت من باب غرفة المعيشة و الذي يؤدي إلى شُرفةٍ كبيرة و مترامية الأطراف و التي يتخلَّلُها دَرجٌ يؤدي مباشرةً إلى حيث أنا ثاويةٌ الآن فوق الأريكة المحببة إلى نفسي دون سُواها مِن بقية قطع الأثاث اللاتي تعج بها جنبات المنزل و التي شهدت آخر لقاء بيننا قبيل سفري إلى المكسيك في مهمة عمل بالسفارة المصرية هناك و كنتم أنتم خلالها تستمعون بأيما نشوة ما كُنتُ أقصه على مسامعكم مِن قصة خيالية و لا أروع عن شخصية اسطورية كان اسمُها " بيضاء الثلج " ...

و الحاصل أنها أردفت قولها بزرف الدمع الوفير تعبيراً عن مدى أسفها لما كنا قد ألحقناه بها من شعور مَقيت ، شديد الوطأةِ على نفسها الرقيقة الحانية ، و لو كان ذلك عن غير

قصدٍ منا ، و على الفور سارعتُ أنا و أخي و انحنينا نُقَبِل رأسها و قدميها و قلبُ كلينا ينفطر حزناً و كمداً على ما قد سببناه لها من ألمٍ و حسرةٍ يعتصرانها و يجثمان فوق صدرها فلا تكاد أن للكلام تبين ، و قلتُ أنا بعدما تمالكتُ بالكاد زمام نفسي :

- أرجو مغفرتك و عفوك عن كلينا يا أماه ، صدقيني ، لم نفطن إلى ما رميت إليه إلا الآن ، و الحق أقول لك أن ما أردته أن يولد من رحم الخيال و يتجسد أمراً واقعاً على الأرض من وراء ما فعلت قد أتى ثماره بالفعل ... ثمار لم نعي قطفنا لإياها إلا الآن في حين أننا نَعِمنا بها قبل ذلك بكثير ... فعلاً ، لقد زال ما كنا عليه من شعورٍ بالبرد القارس و تيبسٍ في أطراف كلينا حينما كنا فارين ... أقصد ذاهبين مهللين بقدوم أبينا إلى البيت ... صدقت يا أماه ! فدفء الاسرة و حنو أفرادها على بعضهم البعض فقط هما من بمقدورهما أن يقهرا أي إحساس بالعجز أو بالبرودة الشديدة و الصقيع ، لا سيما و إن كان ذاك الدفء مصدر انبعاثه هو التفاف أفراد تلك الاسرة جميعاً حول أمرٍ واحدٍ و إن بدا تافهاً في أعين البعض ، إلا أنه يحظى مِنهم و دون أدنى شكل مِن أشكال التفاوت بذات القدر من الاهتمام و العناية ، و إلا فإن شعورهم بالدفء يكون منقوصاً ...

- لا ، لن أقبل بأي اعتذارٍ منكما إلا بعد أن تسمعاني واحدةً

من تلك القصص اللاتي كنت أسمعكما إياها حينما كنتم بعد أطفالاً صغاراً _ و الحادث أنكم لا تزالون كذلك في عيني إلى الآن _ و أؤكد لكما أنها سوف تروق لي و لو كانت على غير ترتيب و تماسك في الأفكار و ذات حَبكة واهية في الأحداث ؛ فإنني أشعر ببرودة شديدة توشك أن تدب بأوتادها القوية في أعماقي و أحتاج لذاك احساس بالدفء الذي منحتكم إياه منذ قليل ...

فأجبتُ بحماسةٍ و تأثرٍ إنفطر لهما قلب أبي ، محمود ، و الذي كان يتابع كل ما كان قد جرى في فناء الحديقة من شرفة غرفته بعد ما كان قد فرغَ من أداء صلاة العشاء ، و قُلتُ بصوتٍ جهوري :

- لبيك يا أمي ! لا تعلمين مدى شوق كلينا لفعل هذا الأمر معك ، و ربما كان ذلك الاحتياج من جانبنا بما يفوق قدر احتياجك أنتِ إليه ... غير أنني و ذاك الطفل الذي بعده يخفق بين جوانحي لم نزل نريدك تشنفين أسماعنا بصوتك العذب و هو يحكي لنا و تطيب به ابصارنا و هي تراه يشدو بأعذب الألحان و يصدحُ بأوقع الكلمات و أكثرها طلاوةٍ ... دعينا أنا و أخي " أحمد " نستلقي برؤوسنا على كلتا فخذيك لنصغي في أيما خشوع بالجوارح قبل الأذان لما سوف تشدوين به و تصدحين من أنغام و ألحان تنساب إلى نفسك و تسكب بداخلك و بداخلنا في آن واحد عطور الزمن الجميل ...

و قبل أن أكمل جملتي ، قاطعني أبي قائلاً و هو يَقدُمُ صوبنا مُسرعاً الخطى و هو يتعثر في سيره ببعض قطع الأثاث بالبيت كأنه بعد لا يبصر أو لا يدرك كيفية يكون السير و التحرك فيما بينها وكذا عُبور ما قد يَعوقه من كلأ و عشب أسفل خُفيه :

- انتظروني ! انتظري يا ساره ! لا تبدئي قبل أن آتي اليكم ! و أنتما ، أفسحا لي المجال لأستلقي على الكلأ الندي و أتوسطكما ! فحِجرُ أمكما ما زال يتسع لرأس طفل ثالث ، أقصد رأس ثالث ، يا لهذه الكلمة ! كلما أسمعها تأتي على لسان أحدٍ استشعر و كأن شيئاً مجهولاً يخفق بين جوانحي و يجعلني أتي من الأفعال ما كنت أتيه و أنا طفلٌ صغير...

أجابت أمي سؤل زوجها و كلا ولديها و البِشرُ و التأثرُ يتخللان كلتا وجنتيها و كأنه عائد إليها ما كانت قد افتقدته على مدى سنوات سبع عجاف يمشي على قدمين مُهرولاً دون تلكؤ أو ابطاء :

- أرءيتم لو كنتم بدون ذاك الطفل القابع في داخل كل منكم و أنا معكم ، أكانت تأتينا و تفيض من أعيننا كل تلك العَبرات و يتغلغل في صدورنا و أطرافنا المتيبسة ذاك الإحساس بالدفء رُغم ما حولنا من صقيعٍ تنوء به جدران اسمنتية صماء و كواهل مَن حولنا من بَشرٍ مات بداخلهم ذاك النداء العذب الرخيم لذاك مخلوق صغير بفعل ما صاروا

يَحيونه من ماديةٍ مقيتةٍ في شتى مناحي حياتهم اليومية ، فعموا و صموا عن كل نداءٍ سوى نداء المادية المستفحل ... أو أكنتم تدينون لي بما أتلوه عليكم من قصص تمنحكم ذاك الشعور بالسعادة و الدفء وسط هذا الكم من الضغوطات و التوترات اللاتي نشهدهن و يعصفن بنا كل يوم ؟ ... أو أكنتم تستعذبون صوتي دون أصواتكم جميعاً ؟ ذاك الصوت الذي ألفتما سماعه منذ الصِّغر ، و كذا الذي من فرط سحره صارَّ يرتد بأبيكما إلى حيث كان يستلقي لدى قدمي أمه و مُلقياً برأسهِ من الجانب الأيسر على ركبتيها و هي جالسة على كرسيها الوثير ذي البطانة المخملية لتلاعب بأصابعها ذوات الملمس الحريري خصيلات شعره الحالكة السواد إلى أن ينم قرير العين و هو لم يزل ينعم في منامه بصوتها الشَدِي الذي كان كعزف أوتاركمان في جوف الليل المظلم ، الصموت و الناطق بالوحشة لقريته النائية المُتاخمة لبيئةٍ صحراويةٍ بكل ما فيها من قسوةٍ و غلظةٍ لا حد لهما ...

أجاب أبانا و كأنه كان يقرأ ما كان بداخل كلينا من أفكار و انطباعات :

- صدقتٍ ! ... لقد كان صوت صُراخك بمثابة ناقوس الخطر في نفوسنا جميعاً ، يدق إيذانا بضياء و إشعاع حكمةٍ شاعرةٍ و لا أروع في نفوس ثلاثتنا ، ألا و هي :

أحسنْ الاستماع كذا الإصغاء

حين يَهمُ طفلُّك بالإلقاء

فكبيراً كُنتَ أو حقيراً ... سواء

قابعٌ بداخلك و يُوجهك أني يشاء

كُن له مطاوعاً و قط للحظةٍ لا ترتاء

عِصيانه ... فعصيانه نَذيرُ همٍ و بلاء

عقل جبار... العلبة الخشبية

" سيكون زفافنا الاسطوري في غضون شهر" ؛ كانت تلك هي الجملة التي نزلت كالصاعقة على نفس "ماهر" و التي طالما أحبت " هدى " العروس و رغبت في الارتباط بها ، غير أن " زاهي " ، صديق " ماهر" منذ الطفولة و الذي كان يعلم بهذا الحب منذ سنين كان هو الأسبق إلى خِطبتها و الفوز بها . " زاهي " ، ذاك الشاب ابن الاسرة العريقة سليلة الطبقة الارستقراطية واسعة الثراء و التي كان يعمل لديها والد " ماهر" كبستاني بسيط و والدته كمربيه تقضي مع " زاهي " معظم الأوقات و كان ذلك على حساب الوقت الذي كانت من المفترض أن تقضيه مع " ماهر" ابنها الوحيد ، و الذي شَبَ يُكن كل عداوةٍ و بغضاء لطبقة الأغنياء على وجه العموم و إلى " زاهي " على وجه الخصوص رُغم أواصر الصداقة اللاتي كانت تربط بينهما و كان " ماهر" يستشعر زيفها و عدم صدقها من جانب " زاهي " ، ذاك الشاب العطرة رائحته و الأنيقة ملابسه و الرشيق قوامه و الذي ما كان يدخل مكانًا حتى تنجذب إليه قلوب الفتيات و تشخص أبصار من يشتهين التقرُّب منه ؛ ذاك الشاب الذي لم يكتفي بكل ما كان فيه من أبهةٍ و ثراءٍ فاحش ، فأخذ يتطلع في اشتهاء و غَيرة لا حد لهما إلى علاقة حب بريئة ربطت ما بين " ماهر" - الشاب النابغة و الذي كان بالسنة النهائية في كلية

العلوم ، قسم الكيمياء الحيوية - و بين زميلته في ذات القسم و التي كانت تصغره بعامين . فارتاء لذاك المختال بنفسه أن يُفرِّق بينهما بما كان له من سطوةٍ و مالٍ جَم تنوء بحمل خزائنه العُصبةُ أولي القوة و نفوذ اسرته الواسع ، لا سيما و أن جميع أفراد أسرة " هدى " كانوا يعملون في جهات و أماكن كان يترأسها أو يُديرها مُجتمعَة أفراد يَنتمون بِصلات قرابة أو دم أو نَسب إلى أسرة " زاهي " و لم يكن بمقدور أي واحدٍ منهم أن يرفض مصاهرته ، و ذلك بصرف النظر عن مدى رغبة " هدى " في إتمام تلك المصاهرة .

كان لا أحد يعلم بقصة الحب التي تربط بين " ماهر" و "هدى" إلا هما و " زاهي " الذي كان قد رآهما يتجولان خلسة بمفردهما بإحدى الطرق المهجورة ، فاشتد كيده و غيظه على تلك الفتاة ؛ إذ كيف يتأتى لها أن تُعجب بغيره و هي على هذا القدر من الجمال و هو الشاب الفقير الذي لا يملك هو و أبويه إلا جدران بيتٍ متداعٍ ، و تنبذه هو سليل الطبقة الراقية ؟! كان التفريق بينهما بمثابة الذهاب الى الموت بخطى ثابتة . كانت " هدى " تشعر بقلق و هلع بالغين من دنو موعد الزفاف و عدم ورود أي رد فعل من شقيق فؤادها "ماهر" الذي كانت تُؤثِر الموت على الارتباط بأحدٍ سُواه . كانت العجلة في الخلاص مما هي فيه تجعلها كالمحمومةِ في الاستعداد لفعل أي شيء لإقصاء تلك الفكرة المتسلطة على ذهنها و الخاصة

بهاجس مَقيت يتمثل في تلك الحياة الجديدة التي كانت هي مُقبلة عليها في مساء اليوم التالي ، و دفعها ذاك الإحساس بالعجز الى أن تَغُط في نومٍ عميق راجيةً ألا تصحو أبداً إلا و قد تَبدَلَ الحال .

كان " ماهر " في هذه الاثناء يقوم بالتجوال حول البيت لينتقي وسيلة ما ليقذف بها الخطاب الذي كتب فيه خطة الخلاص لكلاً منهما ... و بعد دقائق أدخل خطابه هذا داخل علبة خشبية و قام بإلقائها مباشرة إلى حيث شرفة نافذة غرفة نوم " هدى " و التي استيقظت هلعةً على صوت ارتطام هذه العلبة بزجاج نافذتها المُغلقة .

و حينما ذهبت للتحقق مما حدث كان ينتابها شعور بأن ما كانت تفكر بشأنه قبل أن تَغُط في نومها له علاقة وثيقة بما أسفر عن صوت الارتطام هذا .

و حينما هَمَتْ بفتح هذه العُلبة الخشبية ، وجدت في داخلها خطاب بخط يد " ماهر " جاء فيه : " آثرتُ الموتَ في الغُربة على العيش بدونكِ في بلدٍ واحدٍ و أنا أراكِ بصحبة غيري تمرحين ، غير انني أعشم ألا تنسي ما كان بيننا من ذكريات ، لا سيما تلك الخاصة بعصير البرتقال المثلج الذي طالما كنت تعزفين عن شرابه بعد رشفة أو رشفتين وكذا التجارب المعملية اللاتي كنا نجريها سوياً في معمل الكيمياء الحيوية في السنة السابقة على زفافك حول عقار كان يعيد الشباب

و الحيوية للحيوانات اللاتي ظهرت عليها أعراض الشيخوخة و اللاتي كانت تقتات على لحوم غيرها من الحيوانات الأدنى منها قوة .

ملحوظه : أرجو ألا تلقي بهذا الخطاب و أن تحتفظي به إلى الأبد و كوني دوماً حريصَةً ألا يطلع عليه أحد سُواك ، فذاك أمل أتطلع إليه حتى يظل ما بيننا من مراسلات مكتوبة و غير مكتوبة مُرفقة بها سراً لا يطلع عليه أحدٌ سُوانا "

إلى اللقاء

معشوقك الى الابد

ماهر

و حينما طويتْ هذا الخطاب و وضعته حيث كان بعلبته الخشبية اعترى وجهها دهشة بالغة ، تلاها و على الفور مسحة غامضة من الفرح عكست ما انتاب قلبها من انشراح بالصدر و ارتخاء بالأعصاب ؛ فقد استشفت ما كان يرمي إليه صاحب الخطاب من ايماءات هي و هو فقط من كانا يعلما بها ، و تأكدت صحة حدسها حينما وجدت قارورة العقار الذي كانا يجريان حوله التجارب بالمعمل سوياً و ذلك إبان العام المنصرم ، و الذي كان من شانه إحداث تأخُر واضح في الوظائف الحيوية بأجسام الحيوانات و يصيبها بالعجزِ و الشيخوخةِ المبكرة بشتى أنحاء جسدها لاسيما الظاهرة منها و كان ذلك في مدة لا تزيد عن شهر من وقت تعاطيها لهذا العقار ، و ذلك رُغم المناعة

القوية لهذه الحيوانات و التي كانت أضعافاً مُضاعفة ما لدى البشر من مناعة .

و بالفعل جرت أحداث الزفاف الاسطوري و كذا التَداولُ لأخبار و صور العروسين السعيدين و جولاتهما بالبلدان الأوروبية على صفحات الجرائد المحلية و العالمية .

و الغريب أن الاثنين كانا يبديان سعادة غامرة في حين كان داخل كلاً منهما سعيرٌ مضرمٌ ، فأما هو فقد كان على علم بما كانت تُكنه زوجته من مشاعر حب كانت لا تزال تعصف بها حتى في أكثر الاوقات حميميةٍ فيما بينهما ، بل و حتى في منامها ؛ و أما هي فكانت تتعجل الايام حتى يأتي يوم البدء في تنفيذ ما أوعز به إليها معشوق فؤادها في خِطابه .

و الحق أنها لم تُواتيها الجرأةُ لفعل ذلك إلا حينما رأت استحالة أن تُكمل حياتها بمنأى عنه و كذا على مَقرُبةٍ من هذا الوغد الذي كان لا هَّم له إلا الايقاع بالفتيات البريئات في شرنقة حبه و سلبهن أعز ما كُن يملكن دون أن تَقوى إحداهن على الوقوف في وجهه و محاسبته ، هي أو أحد من ذويها .

و جاء اليوم الذي قرر فيه هو أن يحزم أمتعته و يعود برفقتها إلى حيث القصر المنيف و الذي كان قد أمر بتشييده قبيل سفرهما مُباشرة .

و أثناء حزم " هدى " لأمتعتهما ، وضعت الخطاب بطيات ملابس زوجها في غفلةٍ منه ، و هكذا يحدث ما كان قد أوعز

به إليها معشوقها الأوحد .
و حينما عادا و دخلا إلى القصر في وسط حفاوةٍ الاستقبال من جانب خدم القصر و هَّمَ " زاهي " بإخراج ثيابه ، عَثرَ على الخطاب و قرأ ما جاء فيه بأيما فرحٍ و بدى و كانه كان يرقص وجدانه على نغمات حروفه المدوزنة ، فقد حدث له ما أرادَ و احترق قلب غريمه و انسحب من الميدان رافعاً رايته البيضاء أمام ما لا يُقاوم من سلاح قاتل اسمه المال و النفوذ و الشباب .
و لم يُرضي ذلك غُروره ، بل كان دائماً ما يطلب من " هدى " أن تُعد له عصير البرتقال المثلج و أن تحتسيه معه حتى آخر رشفةٍ ، بل إنه كان يزداد نشوةً كلما وجد علامات الامتعاض و التأفُف على وجهها و هي تحتسيه .
كانت " هدى " تُداوم على دَس العقار له بعصير البرتقال . و الغريب أنه و رُغم عدم حبه لعصير البرتقال و الطريقة التي كانت "هدى" تُعده بها ، - فقد كان لا يستسيغ طعمه على الاطلاق و يستشعر دوماً اختلاف مذاقه عن المرات النادرة في ماضيه البعيد اللاتي تناول فيها ذاك العصير، لكنها السادية و نشوة التلذذ برؤية الآخرين يعانون و يتألمون هما ما أنسياه كل ذلك - ، إلا أنه و مع مرور الأيام صار هذا " الزاهي " مُدمناً له بالصورة التي كانت زوجته تقدمه إليه عليها ، و ربما كان مرد ذلك إلى حقده الدفين و الذي طغى على شتى حواسه

الى الحد الذي أنساه ما كان لديه من أذواق ناحية أشياءٍ بعينها . و حينما فرغَ محتوى القارورة ، بدأ الوهن و أعراض الشيخوخة يدبان في جسده و أوصاله . صار الحزن و الشعور بالضألة يكسيان وجهه و بدا و كأنه كان يَتوارى من قُبح هيئته التي كان يصير عليها يوماً بعد يوم و ما كان أقبحها من هيئةٍ ! و أخذ يرتاد العيادات و معامل التحاليل المتخصصة بُغية الوقوف على ما كان ينتاب جسده من تغيرات لا يعلم أحدٌ بعد السر وراء حدوثها . و وصلَ به الأمرُ إلى أنه كان يحدث له و أن ينسى بعض الامور و الحوادث المهمة في حياتِه اليومية و السابقة ، و ذلك على خِلاف ما كان معروفاً عنه فيما بين أقرانه .

و استمر على تلك الحال حتى جاء اليوم الذي طالع فيه خبراً بإحدى الدوريات المتخصصة حول اكتشاف شاب مصري لعقار جديد يعيد الحيوية و النضارة للوظائف الحيوية بجسم الانسان ؛ و قبل أن يَفرغ من قراءة المقال ليعلم من هو الشاب المصري ، نهض كالمذعور مُلقياً من يده بالدورية على مكتبه و يده الأخرى كانت تمتد لتدير القرص و تتصل بإحدى شركات الطيران لتقوم بحجز مِقعدين له و لزوجته - و التي ما كان يأمن أن يتركها بمفردها دون أن يخشى على شرفه الدنس لا سيما و أنه كان يعلم في قرارة نفسه مدى معاناتها و آساها و هي تعيش في كنفه - على متن الطائرة المتجهة إلى ولاية " نيوجرسي "

حيث مكان وجود مركز أبحاث الكيمياء الحيوية و الذي كان الشاب المصري يجري بداخله تجاربه كما كان مُدوناً في صدر ذاك المقال ، تلك التجارب اللاتي كان من المنتظر لنتائجها أن تخرج إلى النور قريباً .

و في صباح اليوم التالي لاتصاله الهاتفي ، كان هو و زوجته على متن الطائرة المتجهة إلى " نيوجرسي " .

و هناك ترك زوجته بالفندق و اتجه الى حيث مركز الابحاث والذي كان يبعد بضعة كيلومترات فقط عن الفندق الذي نزلا به . و هناك وجد ضالته و جرى التواصل بينه و بين مسئولي مركز الأبحاث و جرى اخطاره بأن العقار ما زال في مرحلة التجريب و أنهم بحاجة ماسة لعنصر بشري متطوع يجرون التجربة عليه بعد أن نجحت التجربة على الحيوانات و عادت إليها حيويتها و نضارتها .

و فور عِلمه بذاك أمر انتابته حالةٌ من الحيرة و التردُّد سرعان ما تلاشت تحت وطأة ما كان يعتصره من قلق و ألم حيال ما هو قابل من أيام . فما كان منه إلا أن قَبِلَ مُرغماً أن يوقع على إقرار جاء فيه أنه يتحمل المسئولية كاملةً في حالة حدوث أي شيء له قد يؤدي إلى وفاته في حال اخفاق التجربة ؛ و كان هناك ملحق آخر بهذا القرار لم يعره هو أدنى التفات لما كان عليه من عجلة و حالةٍ شعورية مترديةٍ ناجمة عن إحساسه الدائم بأنه في حالة سباق غير متكافئ على الاطلاق

مع الزمن لا سيما و أن الوقت الذي كان يفر من بين يديه كالماء من بين الأصابع لم يكن في صالحه .

و كان " ماهر" يتابع كل ما يحدث من معمله عبر الكاميرات المثبتة و المنتشرة في شتى أرجاء المركز و ذلك بعد أن كان قد أوصى بألا يزعجه أحد و هو في معمله و أنه يفوض المسئولين بالمركز في أية اجراءات ادارية أو قانونية يرون أنه لا مناص من اتخاذها . و الحال أن رجل آخر كان قد سبقه إلى التطوع لإجراء تلك التجربة عليه و كان عمره يناهز الثمانين عاما أو يزيد ؛ و الحق أن المسئولين آثروا أن يخفوا عن " زاهي " هذا الأمر حتى يتسنى لهم التحقق من مدى مصداقية آثار هذا العقار على الفئات العمرية المختلفة .

و كان " لماهر" فريق من المعاونين له في اجراء هذه التجارب ، فعمدَ إلى تقسيمهم إلى فريقين ، أحدهما يتولى حقن " زاهي " بالعقار و بالطبع لم يكن هو أحد أعضاءه حتى لا يرتاب " زاهي " في الأمر ، و أما الآخر فإنه كان يتولى حقن الرجل المُسِن و كان على رأسهم " ماهر" بالطبع .

و حين أُجريت عمليةُ الحَقن بالعقار إلى " زاهي " وُجدَ ان حالته كانت تتدهور يوماً بعد يوم على خلاف الرجل المُسن و الذي كان يبدو عليه تأثير الحَقن بالعقار واضحاً يوماً بعد يوم ، لا سيما في اختفاء التجاعيد من بشرته و اشتداد عضلاته و اللاتي بَدتْ مَنحوتةً و كأنها لشابٍ لم

يبلغ الخريف الثلاثين من عمره بَعد ، بل و حتى في طريقة مِشيته و اتساع المسافة ما بين مَنكبيه .
و الحال أن ذلك كله كان راجعاً إلى أن " ماهر" لم يضع في تركيبة العقار التي سلمَّها إلى فريق الباحثين " المصل المضاد " للعقار الذي كان قد اكتشفه منذ عام و ينجم عنه الانهيار التام و الفجائي في جهاز المناعة ، ذاك العقار الذي لم يكن بعد قد أُعلن عن اكتشافه له بعد و لا عن ذاك المصل المُضاد له و الذي كان يجري التجارب الخاصة به في معمله منفردًا و في ظل غياب كامل من طاقم الباحثين المعاونين له . و كان من تبعات ذاك أمر أن فارق " زاهي " الحياة بعد سويعاتٍ معدودةٍ من تناوله لذاك العقار .
و الحادث أن ذاك المَصل الفريد مِن نوعه كان لا بُد مِن وضعه في تركيبة ذاك العَقار إذا ما كان مَن سوف يتناوله في ريعان الشباب و يعاني من مرض فقدان المناعة جراء اصابته بمرض الإيدز أو تناوله لذاك العقار الذي كان من شأنه أن تدب علامات الشيخوخة في شتى ملامح الشخص بعد أن يكون قد مَضى على تَناوله له شهرٌ أو يزيد ، و تلك أمور هي ما ظلت في طي السرية و الكتمان في أبحاثه و اللاتي كان ينوي الكشف عنها و لكن ليس قَبل أن يَتم له ما أراد و يتخلَّص مِن غريمه و عدوهِ اللدود .
و في اليوم التالي لوفاته ، تَصدَّرَ الخبرُ مانشيتات جميع

الصحف مع التنويه إلى أن سبب الوفاة كان راجعاً لإجرائه متطوعاً لتجربة حقنه بعقار جديد يعيد إليه الحيوية و النضارة ، و لم يكن ذاك لعيب في تركيبة العقار و لكن لكونه كان مصاباً بمرض فقدان المناعة " الإيدز" من جراء ما كان يُقيمه من اتصالاتٍ جنسية آثمة بفتيات غانيات و اللاتي يبدو أن إحداهن كانت حاملة للعدوى لا سيما و أن الأحياء اللاتي كان يَقطنهن أولئك الغانيات - و كان معلوما جيداً تَردُد المُتوفي عليها قبيل اصابته بذاك المرض العُضال و كما شهدت بذلك السيدة زوجته التي بدا جيداً أنها كان لا حيلة لها فيما كان يفعله زوجها كل ليلة و يَحُطُ به من شأنها و شأن أسرته العريقة - يكثر بها الحقن بالعقاقير المخدرة و غالباً ما يحدث و يجري الحقن لأكثر من واحدة بذات الإبرة ، و هذا ما أظهره بوضوح التقرير الطبي المنشور إلى جوار خبر وفاته في موضع بارز من الصفحة ، و على رأس تلك الصحف تأتي كلاً من صحيفتي The " Economist " "Herald tribune" . و جاء بالتزامن مع نشر هذا الخبر الاعلان عن أول تجربة ناجحة " للعقار" على شيخٍ مُسِن ، كان هو والد الباحث المصري مكتشف العقار ، الأمر الذي كان من شأنه التأكيد على مدى تيقن الباحث من الأثر الفعال للعقار ، و ذلك هو ما أثبت للجميع أن عدم نجوع العقار مع السيد " زاهي " كان نتيجة مرض فقدان المناعة لديه .

و آلت تركة " زاهي " إلى زوجته حسبما كان ينص البند الأخير بملحق الإقرار الذي وَقَّعَ عليه " زاهي " بخط يده دون أن يفكر في مطالعة ما جاء فيه ؛ والحال أن هذا البند كان قد استحدثه "ماهر" عشية اليوم الذي عَلم فيه بدنو مَجيء غريمه إلى مركز الأبحاث وكان ذاك على إثر اتصال هاتفي تلقاه من موظف الجوازات بمطار ولاية "نيوجرسي" وكان ذلك بموجب اتفاق مُسبق في مُقابل مبلغ نقدي ليس بالزهيد ، وكان ما نما إلى علم الأخير أن هذا الشخص يَدين بمبلغ كبير من المال إلى السيد " ماهر" و هو يريد أن يسترده منه عن طريق ابلاغ شرطة الولاية فور وصوله .

و أما عن أسرة " زاهي " و أقاربه ، فقد غادروا جميعهم البلدة بعد ما انخفضت أسعار أسهم مجموعاتهم الاقتصادية بجميع البورصات العالمية بعد نشر خبر الوفاة و أسبابها المُخجلة ، الأمر الذي دعاهم إلى أن يرحلوا في جُنح الليل بعد أن كانوا قد باعوا بعضاً مِن مُمتلكاتهم بأبخسِ الأثمان ، بل إن البعض منهم كانوا قد غادروا بيوتهم الفارهة دون ان يُخولوا أحداً للتصرُّف فيها بالبيع أو حتى بالإيجار .

و بعد نجاح " ماهر" في تحقيق ما طمح و خطط إليه سنين و باقتدار ، وكذا في نيل أرفع الدرجات العلمية و المراكز الأكاديمية و ذاك بعد أن أضاف إلى بحثه ما ادعى أنه اكتشفه و عكف على دراسته أشهر طويلة للتوصل إليه

مِـن مَـصل يكـون مَنوطـاً بـه ازالـة علامـات الشـيخوخة و العجز لدى من يُعانون مِن مرض فقدان المناعة ؛ لكنه في الوقت ذاته لم يُصَّرِح بأي شيء بشأن اكتشافه لتركيبة ذاك العقار الذي كان مِن شأنه اصابة من يحتسيه بمرض فقدان المناعة و ظهور علامات الشيخوخة و العجز في كل مكان بجسده ، سواء الظاهر منها و ما هو غير ذلك ، اتجه هو و معشوقته " هدى " إلى أقرب مركز اسلامي و عقدا قرانهما ، و أبلغ " ماهر" والدته تليفونياً بموعد وصولهما و بصحبتهما أبيه و طلب منها أن تنتظره هو و زوجه المصون في القصر المنيف الذي طالما ذاقت فيه هي و زوجها صنوف الإذلال و المهانة ؛ فهذا القصر كان قد آل بكل ما كان فيه إلى ملكيتها هي و هذا ما كان بموجب منطوق تَنازُل عن كل ما كان يملك مِن عقارات من جانب " زاهي " لصالح السيدة التي ربته و رعته رضيعاً و صغيراً حتى صارَّ شاباً فتياً ، ذاك التنازل الذي كان بذيل الصفحة الثانية لمُلحق الإقرار الذي وقع عليه " زاهي " و هو على عجلةٍ مِن أمره .

و أما " هدى " فقد تنازلت عما كان قد آل إلى حساباتها البنكية من مبالغ طائلة لصالح أبحاث الكيمياء الحيوية بمركز أبحاث ولاية " نيوجرسي " و الذي صارَّ زوجها يَشغل حالياً مَنصباً مرموقاً به .

و عاد الزوجان العاشقان في وسط حفاوة استقبال من أهل البلدة جميعاً ، استقبال أشبه بذاك الذي يكون للأباطرة العائدين مُكلَّلين بالنصر على أعدائهم بعد معارك دامية بذلوا فيها الدم و العرق و الجُهد .

الحب القابع في الأمكنة

كان العزاء في صباح ذاك اليوم يسكن أرجاء الطابق السفلي من البيت ، و حينما خيم الليل و أنا على جلستي ذاتها أمام المدفأة التي أعتدنا أنا و زوجي المرحوم عزيز الجلوس قبالتها في ذاك البرد القارس ، جاء صوت همس إلى أذني كهمس الريح يقول : " ماذا حل بك يا فؤادي ؟ هل اعتراك مس من سحر يا ثريا ؟ .. هيا اذهبي إلى حيث غرفة ولدنا الوحيد و سَليه إذا ما كانت بعدها تحذوه الرغبة في الذهاب إلى مضمار السباق من أجل أن يتابع سباق الحواجز و يَتعلم الفروسية ... و افعلي له ما يريد ، و أخبريه أن أباه لن يُخلف وعده معه ،حيًا كان أم ميتًا .

و حين دخلت غرفة نوم وليدنا - وليد - وجدته ، و قبل أن يكتشف هو حضوري ، جالساً على كرسيه و خطوط الحزن تتخلل ملامحه القوية حزناً و كمدًا على أبيه ، فسألت إياه و أنا في دهشة من أمري و أمر ذاك الهاتف الذي هَمَسَ في أذني منذ قليل :

" – وليد ، إنني لا أريد أن أرى سوى الابتسام و هو يكسو وجهك و يُزين شفتيك ، و يُحرك فيك الحياة و يجعلك مفعماً أكثر فأكثر بالحيوية ، تماماً مثلما أراد أباك و حَلُمَ دائماً ...

- أماه ! إن ما تريدينه مني أمر يفوق قدرتي على الاحتمال و التصَّور ، فأنى لك أن تطالبيني بأن أكون كشمس اليوم المُشرقة و قد غاب عن حياة كلانا ضوؤها النقي ؟! ثم أنه أنى لي بالنقاء و الصفاء و أنا أراك كل يوم تذبلين أمام ناظري و تَذهبُ عنك الحياة بعيدًا يوماً بعد يوم ؟ !

الحق أنني خَشيتُ أن أصف و أروي لإياه ما كان قد حدث معي منذ برهة حتى لا ينتابه الفزع ، بل و ربما الهلع أيضاً ، من أشياء بَعده يجهلها و لا يحيط بها عِلماً ، و رُحتُ استحثه من أجل أن يخرج من مَحبسه ذاك و يَهِمَ بالنزول معي من تلك غرفة مكفهرة - صارت في النهاية كبُرج عاجي يَعزله عن رؤية ما في الحياة من جمال

- على أن يكون ذاك الهبوط المُبارك له من تلك الغرفة في صباح اليوم التالي ، بعد أن يكون قد أخذَ قسطاً وفيرًا من النوم النهيء بعيدًا عن تلك أفكار مُتسلطة استبدت به و أضنته بجثومها فوق صدره ليال طوال ، ليرى كم هي جميلة الحياة و كيف أن البهجة و السعادة عادتا من جديد إلى حيث كان الطابق السفلي .

و جاء صباح اليوم التالي ، و دَعوتُ " وليد " للحضور إلى الطابق السفلي من أجل أن يتناول معي طعام الإفطار في شرفة ذاك الطابق و التي كانت تطل على الحديقة مُباشرة ... و الحاصل أنني ظللت أدعوه للحضور بصوتٍ

عالِ حتى بح صوتي و انتابتني قشعريرة من أثر ما كانت تحدثني به نفسي من أمور مأساوية قد تكون قد ألمت به إبان فترة الليل تلك ... و على الفور هَرعتُ إلى حيث كان باب غرفته بالطابق العلوي ، حيث المَمر الكائن بالجهة الشرقية ، و حينما دَلفتُ إلى تلك الغرفة ، لم أجد له أي أثر بين جدرانها ....

و الحادث أنه كان قد خط لي رسالة قصيرة جاء فيها : " أمي العزيزة ، كم تمنيت لو أنني أجبتك إلى ما كنت قد طلبته مني بالأمس ، غير أن هناك شيء وحيد هو المنوط به أن يساعدني على الاستمرار في الحياة هكذا بدون أبي ، و لا جرم أن ابتعادي عنه هو ما جعلني أقاسي على النحو الذي رأيتِهِ ، بل و ربما أكثر بكثير من تلك الحالة المزرية التي كُنتِ قد دَخلتِ عليَّ غرفتي بالأمس و وجدتِني عليها .... "

و الحال أنه اختتم رسالته تلك بتلك كلمات و لم يدرج أدني تلميح أو إيماءة لما يمكن أن يكون مُتواجدا فيه من أمكنة .... و الحق أنني هَبطتُ الدرج المؤدي إلى الطابق السفلي لأنعم بالراحة و السكينة و كذا ليتسنى لي النظر ملياً فيما يُمكِن أن أفعله إزاء ذاك أمر مزعج . و الحاصل أنه لم تَمضي علي إلا دقائق مَعدودة و أنا على هذه الحال حتى جاء صوت ذاك الهاتف يَشُقُ دُجاي و مُعاناتي قائلاً :

" لا تجعلي القلق يَنسابُ إلى نفسكِ ، فولدُن االحبيبُ الآن يَـنعم بأيمـا ترحـاب و حفـاوة في ذاك المكان الـذي يجلس فيه بين الذكريات و يُعانقُ المُستقبل المُشرق بكلتا ذراعيه و الذي يَمتطيه إلى حيث شاءت الأقدار له ...."

و على أثـر تلـك كلمـات ، نَهضـتُ مـن مكاني هلعـةً ، كَمَـن مَسَـته جُـنة ، و أنـا تحـذوني الرغبـة المحمومـة في أن يكون ما يُخالجني من شعور أو بالأحرى حَدس حِيال المكان القـابع فيـه ولـدي في تلـك الآونـة حدسـاً صحيحاً و لـيس هاجسًا كاذبًا لا أساس له من الصحة ...

و على الفـور ، اتجهـتُ إلى حيـث كان مِضـمار سِـباق الخيـل ، و الـذي طالمـا دَوتْ بجنباتـه صـيحات التشـجيع و الـدعم لزوجي الراحل على ما كان يأتيه من أعاجيب في سباق الحواجز و يَبُزُ به أقرانه و مُنافسيه في أيما اقتدار . فـذاك كـان هـو المكـان الـذي طالمـا تَعلَّـقَ بـه فـؤاد ولـدنا الصغير و طالما ألَّحَ على والده في أن يصطحبه معه إلى هناك ليراه أثناء التدريب أو السباق ...

و حينمـا وَلجتُ إلى داخـل ذاك المضـمار ، رأيتـه واقفـاً بانتصـاب و على وجهـه إشـراقة أمـلٍ بـدا فتيـاً ، مَـمشوق القامة و بعينيه لَمعةٌ تَنُم عن ذكاء و عبقرية ، تماماً كما كان الحـال و الهيئـة اللـذان كان عليهمـا والـده و هـو واقـفٌ في انتظـار أن يـأتي دوره و يَلـجُ إلى داخـل مضـمار السـباق

و هـو يَـمتطي حصـانه الأبلـج الأكحـل كأنـه القائـد العائـد بالنصر .....

و الحـال أنني ظللـت أرقـب حـال ولـدي و لـم أقطـع أو بالأحرى أُفسـد عليه حالـة الشُـرود المَشوب بالفرح و الارتياح اللذان كان عليهما ... كان شاردًا بعقله و مُستغرقاً إلى أبعد مدى إلى درجة أنه لم يلتفت لوقع خَطو قدمي مِن خَلفه رُغم تَعثُر قدمي اليُمنى و وشوك أن أنكبَ على وجهي لولا أن تداركتُ الأمر و أفلحتُ في ألا أُخرجه مِن حالة الشرود اللذيذ التي كان عليها تلك .... و حين وضعتُ يدي اليُسرى على كَتفِه اليُسرى ، فوجئت به يَضعُ يده اليُمنى عليها دون أن يَلتفتْ ، قائلًا :

" – لقـد أتيـتِ في مَـوعدِك ، تمامـاً كمـا أخبرني ذاك هـاتف في أذني كان يحمل ذات نبرة صوت أبي ، و إني لأظن أنه هـو صاحب نبرة الصوت المُميزة تلك في نَفسي و نَفسِكِ ... هَلُّمِ معي لأريكِ ذاك الحصان العربي الذي اشتراه أبي العام المُنصرم بعد أن مات عنه أباه و كان في حالةٍ يُرثى لها ... "

و حينمـا وصلنا إلى حيث كانـت تُرابِـضُ الخيـول و تُـسقى و يُقدم إليها الطعام ، فإذ بذاك المُهر و قد فَرَّ مِن حيث كـان قابعًـا و مُـكبلًا ، ذاك أن لسـعة الحنـين كانـت قـد أضنته إلى درجة جَعلته معها يَنزعُ عن نَفسهِ ما كان مُكبلًا

به مِن قيود و يَخِبُ في أيما جُموح صوب ذاك البيت الذي كان واقعًا بجوار مِضمار السباق ، و هو ذاك المكان الذي اشتراه منه أباه بعد أن فارق صاحبه الحياة و عَمُدَ الورثة إلى عرضه للبيع بالمزاد العلني و الذي بِيعَ فيه أيضًا البيت و كل ما كان يَملكُ ذاك المالك من أجل الوفاء بِسَداد ما كان مُستحقًا عليه مِن ديون أثقلت كاهله في حياته ، فلم يَجدُ مِن ثمة مَناص سُوى بأن ينتقل إلى جوار ربه حزنًا و كمدًا على ما آل إليه حاله ... و الحال أنه كان يقضي وقتًا طويلًا مع والد ذاك المُهر الجامح يشتكي إليه ضِيق ذات اليد و يُفضي إليه بما لم يَكُن من الممكن له أن يُفضي به إلى أحد و لو كان ابنًا له ، ذاك ابن لم يَشأ له القدر أن يأتي له من صُّلبهِ ...

و الحادث أنه حينما واتته تلك النوبة القلبية المُفاجئة في الغابة و هو يمارس رياضة الصَّيد المُحببة إلى نفسه و كان برفقته في ذاك الحين حصانه ذاك ، ماتا كلاهما و هما يَرمُقان بعضهما البعض بِنظرات الوداع الشَجية وكأنهما كانا يقولان لبعضهما البعض دون أن ينبس أحدهما بكلمة واحدة :

" – إلى اللقاء في عليين حيث لا فِراق ولا افتراق إلى الأبد . "

و حينما اقتفينا ، أنا و وليد ، الأثر حتى ذاك المنزل ، وجدناه هناك بالفعل و تحديدًا بذات المكان الذي كان يرتع

فيه مع أبيه و يمرحا معًا ، ذاك الذي خرَّ صَّعِقًا مِن فوق جُرفٍ صَّخري حينما رأى صاحبه في النزع الأخير و هو لا يَقوى على فعل أي شيء من أجل أن يَبقى على قيد الحياة ...

و هناك طَلبَ "وليد" إلى المالك الجديد لذاك العقار أن يُؤجرا هو و أمه ذات المكان الذي كان يُرابض فيه ذاك المُهر و أباه و يَرتعا معاً ، فأجابه ذاك المالك إلى مَطلبِه لِما كان قد رأى عليه "وليد" مِن حالةٍ استعطاف وتَذلُّلٍ يُرثى لها ، وكذا كان ذاك بمثابة إعزاز من جانبه لذكرى ابنه الوحيد و الذي كان يُشبه "وليد" إلى حد كبير و كأنه كان استنساخاً منه في كل شيء ، ذاك الطفل الذي فارق الحياة و هو يتمنى لو أنه أمهلته الأقدار و اقتنى حصانًا أبلجًا أكحلًا تمامًا كذاك الذي أراد "وليد" و أمه أن يستأجرا من أجله ذاك المكان الذي كان يُرابضُ فيه هو و أباه و يَرتعا معًا ...

و الحادث أنه و حينما كانت تسوق الأقدار ذاك المُهر البهي الطلعةِ إليه و يَستشعرُ هو أن فيه كان العِوضُ عما كان قد فَقده بموت فلذةِ كَبدِه ، و الذي كان يتهيأ له أنه يراه يَرتع و يَلعب مع ذاك المهر الجامح في ذات المكان الذي كان يريده لهما أن يَكونا فيه و يَلعبا سويًا حينما يحدث ويأتي به إليه تماماً كما كان قد وعد إياه قبل

مَوتِه بأيام ، كان سُرعان ما يأتي في أعقاب ذاك المُهر الشارد السائس خاصته لينتزع كِلاهُما من تلك فرحةٍ غامرةٍ كانا يَشعُران بها و كُلًا مِنهما في مَعية الآخر و إن اختلف مَردُ سَعادة أحدهما عن الآخر .

و الحاصل أن ذاك المالك الجديد لم يقو على مُصارحة " وليد " و أمه بتلك الحادثة التي صارت معه و آثر أن يُجَاريهما فيما كانا قد طَلباه مِنه وذاك حتى لا يَظُّنا به الجنون و العته ...

و بينما كان ثلاثتهم يتبادلون أطراف الحديث حول أمور البيع و الشراء و التسجيل للعقود و صياغتها القانونية لدى مكتب كاتب العدل ، و كان يشهد حوارهم ذاك عن بُعد ذاك مُهرٍ أبلج أكحل ، إذ بعاصفةٍ قويةٍ كَريح عاد جاءت تقتلع كلَّ واحدٍ منهم إلى حيث تشاء له الأقدار ، فكان تَحليقهُم بالفضاء صَّوب ارادة القدير و كأنهم أوراق شجر ذابلة في مَهَبِ ريحٍ عاصفة تَجتث الجبال مِن حيث أوتادها . و العجيب أن وجهة كل واحدٍ منهم كانت هي ذاتها التي يجد بها العزاء و السُلوان عما كان يعتريه مِن حُزن مُقيم ، و قد آوت ثلاثتهم يدا القدير في راحة الرحمات و النفحات إلى حيث الطابق السفلي حيث هَبطَتْ أولاهم دونما أدنى أذى على أريكتها قُبالة المدفأة و التي كان الحطب بها لم يَزَلْ مُشتعلًا و تَنبعثُ منه حرارةٌ و دفءٌ

ليسا لهما مثيل ، و ذاك ما كان من أمر زوجة "عزيز" ، و التي هي تُحدثكُم الآن ؛ و أما "وليد" ، فقد حَملته الريح إلى حيث كان مُعتادًا أن يقف تمامًا و يتابع أبيه عن كثب و هو يُبهِر الجميع بأدائه و لِياقته الأخاذين ، و العجيب أنه هَبَطَ واقفًا و في ذات البُقعة بمضمار السباق و التي كان مُتيمًا بها و كأنه كان مُعلقًا في خُيوط مِنطاد حطَّ به حيث كان يُريد ، و أخيرًا كان السيد مالك البيت المُجاور لمضمار السباق و الذي لم تذهب به الريح العاصفة بعيدًا ، بل حَمَلته و ساقته ، كأنها يَدُ القدر الرَّحيمة ، إلى حيث كان مُهر ولده الأبلج الأكحل ، ذاك المُهر الذي لم يتحرك قَيدَ أنمُلة مِن حيث كان ثاويًا يَرتع و يَمرح و كأن الريح قد سَكنَتْ فيما كان يأويه من غُلافٍ جوي بدا و كأنه كان منيعاً على تلك الريح بحيث لم يتسنى لها أن تَجتازه و تَنفُذَ مِن خِلاله .

و جاء صباح اليوم التالي ، فوجدَ كل واحدٍ منهم مُستلقياً في أيما استرخاء و شعورٍ بالسكينةٍ كمن غَشيته أمنةً نُعاسًا بالليل و حينما أفاق مِن غَشيتِه وَجدَ نفسه فوق بُساطٍ أخضرٍ جَميل يَحمله بعيدًا عما كان يَكتنفُ دُنياه الجَميلة بتلك البُقعة التي كان ثاويًا بها من أهوال الدنيا الفانية و ما ذاك أمر سُوى مِن فَرط ما كان يشعر به كُل واحدٍ منهم مِن تَذاوب و تَوحد مع المكان إلى درجة

جَعلته يُهيأ له و كأنه كان يَرى رأي العين كل مَن فارقَ مِن أحبةٍ و قد عادوا و بُعِثوا إلى الحياة مرةً أخرى في تلك أمكنة ليستعيدوا معاً ساعات الماضي الهنيئة و المُفعمة بالراحة و الجمال معاً ...

كانت ليلة من ليال الأنُس الروحي ، و لا أعلم إلى الآن على وجه اليقين إن كان ذاك حقيقيًا أم دربًا من الخيال خُضناه مُرغَمين مِن جراء ما كان يعترينا مِن مشاعر تُودي بأقصى الأفئدة و أكثرها تحجرًا ... غير أن ذاك ما كان قد حدث مع كل واحد منا و عَمُدَ إلى قَصهِ و تلاوتهِ على أذن الآخرين و كذا أفئدتهم ... و الحق أن تلك الأمكنة هي دائما اللاتي نَجدُها تفتح إلينا أذرعها حينما نأوي إليها و نحن يَعتصرُنا الأسى على مَن مَضوا مِن مَمر الحياة و خَلَّفوا في حُلوقنا قَبل أفئدتنا المَرارة و الحسرة .

الفهرست

الإهداء	٣
الماء المتجمد في الاباريق	٤
انفراجه	٩
البحيرة الراكدة	١٣
رِحلةُ العِبرات	٣٩
امرأةٌ في وعاء	٤٣
نصف ساعة	٥٠
سَبيلُ الحق .... جَدولُ الخيرات	٥٥
نجاة عزيز في الممر	٦٠
طاقة نور	٦٤
حِكمةُ مُبتَلى	٧٤
ليلةٌ دافئة ..... الطفلُ القابعُ في داخلنا	٨٩
عقل جبار ... العلبة الخشبية	١٠٣
الحب القابع في الأمكنة	١١٧